الإمام
عبد الحليم محمود

شيخ الشيوخ

أبو مدين الغوث

حياته ومعراجه إلى الله

دار المعارف

شيخ الشيوخ

أَبُو مَدْيَن الغَوْث

حياته ومعراجه إلى الله

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

يامن علا فرأى ما فى الغيوب وما ... تحت الثرى وظلام الليلِ منسدل
أنت الغياثُ لمن ضاقت مذاهبهُ ... أنت الدليلُ لمن حارت به الحيلُ
إنا قصدناك والآمال واثقـة ... والكلُّ يدعوك ملهوف ومبتهلُ
فإن عفوتَ فذو فضل وذو كرم ... وإن سطوت فأنت الحاكم العدلُ

(من شعر أبى مدين).

مقدمة

فى ظهور الصوفية فى الجو الإسلامى

بدأ الصراع بين الخير والشر منذ بدأت الإنسانية.

إن إبليس منذ بواكير الإنسانية أقسم قائلا:

﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾.

واستثناء عباد الله المخلصين من الغواية ليس معناه أن إبليس لم يحاول معهم الأخذ بهم إلى طريقها، وإنما لأنه أخفق معهم، بأنه يلقى بشراكه لكل بنى آدم، فينقاد البعض، ويتردد البعض، ويأبى البعض.

ومن طريف ما يروى عن إبليس فى محاولاته مع أبى مدين ما يذكره صاحب الكواكب الدرية من أن بعض الأولياء رأى إبليس فقال له:

كيف حالك مع أبى مدين..؟

قال: ما شبهته فى نفسى فيما يلقى إليه فى قلبه إلا كشخص بال فى البحر المحيط.

فقيل له: لم تبول فيه؟..

قال: لأنجسه فلا تقع به الطهارة، فهل رأيتم أجهل من هذا؟ فكذا أنا وقلب أبي مدين رضى الله عنه، كلما ألقيت فيه أمرًا قلب عينه[1].

والواقع أن سبيل إبليس فى هذا الصراع ممهدة نوعًا ما، وذلك أنه يسير متناسقًا مع الغرائز والشهوات المركوزة فى النفس التى لم تتهذب بالدين.

وما من شك فى أن نزاعًا قويًا يدور دائمًا بين النزعات والأهواء من جانب، وبين دعوة الأنبياء من جانب آخر، ويتحقق هذا النزاع - واقعيًا - فى طائفتين من الناس، هما طلاب الدنيا وطلاب الآخرة.

إن الإنسان لو ترك وغرائزه لفسد المجتمع، وما تماسك المجتمع إلا لأن الإنسان لا ينطلق مع غرائزه.

وهذا السمو بالغرائز وتوجيهها التوجيه الصحيح هو - فى صورته الصادقة - من عمل الدين، وأثر من آثار دعوته.

وإذا كانت القوانين تعمل على الحد من الغرائز، فإنها تقوم على ذلك عن طريق الرهبة التى لا يتأتى أن تستمر دون انقطاع، إذ أنه بمجرد أن تتاح الفرصة لانطلاق الغرائز فى خفية عن القوانين، فإنها تنطلق: فاسدة مفسدة. وبمجرد أن تتمكن الغرائز من هدم القانون فإنها تنطلق: طاغية مدمرة، وكم قص التاريخ من أمثلة على هذا وذاك من انطلاق الغرائز مستخفية مستترة، أو مستعلنة متبجحة.

---

(١) يعنى: غيره.

وكم لإبليس من لحظات يقيم فيها الأفراح لأنه نجح فى إقامة مجازر قامت على الظلم والطغيان، أو لأنه نجح فى إقامة حفلات حمراء انتهكت فيها الفضيلة، وقام فيها الرجس سائدًا مسيطرًا.

ولقد اتخذ إبليس - على مر العصور - أعوانًا من البيئة والظروف والملابسات يكيفها حتى تتلاءم مع أهدافه.

وإن من أعوانه فى العصور الحاضرة مجموعة من الوسائل فى غاية الخطورة، إن من أعوانه السينما بهذه الأفلام الجنسية التى تثير الغرائز، وتنتهك الفضيلة، ويروج اليهود لهذه الأفلام ، وينتجونها، ويذيعونها من أجل إفساد شباب العالم. ولقد وصل الأمر ببعض الأفلام أن ظهرت فيها النساء عاريات تمامًا.

ومن أعوان إبليس المسارح: وليس من المصادفات أن «كارل ماركس» اليهودى حينما دعا إلى عدم الاعتقاد فى الدين، قيل له:

ما هو البديل عن الاعتقاد فى «الإلهية»..؟

فقال: إن البديل هو المسرح.

ثم قال: ألهوهم بالمسرح ففيه الكفاية لصرفهم عن فكرة «الله».

ومنذ ذلك اليوم واليهود يعملون على ترويج المسرحيات التى تتنافى مع الفضيلة فى أية صورة من الصور: يسيرة كانت أو خيرة.

وهناك مجالات تخصصت لنشر الرذيلة، والغريب أن الدول تبيح نشرها وإذاعتها، بل واستيرادها وتوفير العملة الصعبة لهذا الاستيراد، وهي تعلم أنها إفساد للشباب: شبانًا وشابات..!!

ووسائل الإعلام جميعًا، خصوصًا الوسيلة المرئية «التليفزيون» تعمل متعمدة أو غير متعمدة، عن شعور أو عن سذاجة، على الإفساد وبعضها يروج لفكرة الإلحاد عن طريق الإشادة بمن يمثلونه، وعن طريق السخرية بمن يمثلون الدين من علماء، وعن طريق الاستهزاء باللباس الذى يرتديه علماء الدين.

ذلك وغيره من آلات إبليس للإغواء، ويعاونه اليهود فى ذلك بالنسبة لغير اليهود، وذلك تمشيا مع تخطيطهم فى إفساد العالم - فيما عدا اليهود - ليسيطروا من وراء ذلك على العالم، أو لتكون لهم على الأقل إمبراطورية مترامية الأطراف.

ونزعة الشهوات التى ركزت فى الطبيعة البشرية، والتى تتجاوب فى يسر مع سعى إبليس، والتى يدعو اليهود إلى تقويتها ونشرها ومعاونة إبليس فى ذلك.. هذه النزعة هى التى أتت الأديان لتهذيبها والسمو بها إلى الربانية، أو إلى الإنسانية المهذبة بحسب استعداد الفطر والجبلات.

* * *

ولقد جاهد الأنبياء طيلة حياتهم للعمل على الرقى بالإنسان، مقربين له

من الله. واستجاب لهم أولو البصائر الصافية، وخلفوا الأنبياء فى الدعوة إلى الله..

وفى الجو الإسلامى كان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأول: أبو بكر الصديق، رضوان الله عليه، حاكما وداعية..

وكان الحكم بالنسبة إليه وسيلة إلى الدعوة، فهو فى خدمتها، وما كان الحكم بالنسبة إليه غاية فى نفسه، أو وسيلة للاستمتاع بالسيطرة، أو الاستمتاع بالملذات، وإنما كان وسيلة للدعوة، وخدمة لها.

وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الخلفاء الراشدين.

حتى جاء يوم كان الحكم غاية فى نفسه، وسبيلا لإرضاء الكبرياء، وتوفير المتع..

لقد أصبحت الخلافة «ملكًا عضودًا»..

وفى فترة عابرة من فترات التاريخ المضيئة تولى سيدنا عمر بن عبد العزيز الحكم ، فأعاد إليه الصورة التى يجب أن تكون، أعنى أن يكون الحكم وسيلة للدعوة.

ومعنى كون الحكم وسيلة للدعوة أنه وسيلة للفضيلة، للمثل العليا. لنشر مكارم الأخلاق.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وخلفاؤه فى الحكم يجب أن يسيروا على سنته، فإذا ما توافر ذلك بصورة أو بأخرى فيما يتعلق بطابع الحكم، فإن هؤلاء الحكام يكونون قد أرضوا الله ورسوله، وكفى بذلك مكافأة جميلة لهم.

* * *

ولكن الوضع التاريخى فى الأمة الإسلامية يرشدنا إلى أنه حينما أصبحت الخلافة «ملكا عضودًا» أى انفصل الحكام عن مهمة «الدعوة» ، أو على الأقل بدأت الدعوة تأخذ دورًا ثانويًّا.. فإن الله قد هيأ طائفة العلماء الذين تخصصوا فى علوم الإسلام، وقاموا بالدعوة فى أقطارهم ، وكان من أعلامهم «الحسن البصرى»، و«سفيان الثورى» ، والأئمة الأربعة، وأعلام الحديث، وكثيرون يعدون بالعشرات فى كل عصر، وجاهد هؤلاء العلماء فى الله حق جهاده.

وأحبت الدولة أن تميل بهؤلاء العلماء إليها، فجعلت نظام الوظائف وقد كان العلماء يدعون إلى الله، لا يريدون من وراء ذلك جزاءً من الناس ولا شكورًا..

لقد كان قصدهم: الله. لا يبغون بذلك بديلا..

وكانوا يتاجرون أو يحترفون بمقدار ما يسد حاجتهم، وكانوا وهم على هذا الوضع من الحرية ينصحون للأمة، وينصحون للحكام، وكان فى

شعورهم الحديث الشريف:

«الدين النصيحة - ثلاثًا - قلنا: لمن؟.. قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[1]».

وعن جرير بن عبد الله قال:

«بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم[2]».

وأحاديث الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ومنها ما روى عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما من نبى بعثه الله فى أمته قبلى إلا كان له فى أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل[3]»

ومنها:

«والذى نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

الله أن يبعث عليكم عذابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم[١]».

وكان ماثلا بين أعينهم قوله تعالى:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله﴾.

وقوله تعالى:

﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون﴾.

وهذه الأحاديث والآيات القرآنية إذا كانت الأمة الإسلامية، وخصوصًا حكامها، مطالبين بها، وهى تخاطبهم، فإنها على الأخص موجهة للعلماء، والقائمين بأمر الدين.

... وتابع العلماء الصادقون مجهودهم فى هذا المجال غير مبالين فى سبيل الله بجهد أوعقبات أو آلام..

* * *

ولكن الحكام بذلوا كل ما يستطيعون لاستمالتهم، واستجاب البعض، وتلك طبيعة الأمور.. وإن من عادات التاريخ أن يستجيب البعض.

---

(١) رواه الترمذى وقال: حسن غريب.

وحينئذ ظهر فى الجو الإسلامى - من بين العلماء أنفسهم - طائفة من الناس كانت موجودة من قبل، وكانت تعمل فى غير ما صخب أو ظهور.. تلك هى طائفة: الصوفية.

والصوفية - منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم - كانت تستمد سيرها إلى الله من القرآن مباشرة - لأنهم كانوا من العلماء - وكانت تستمد سيرها من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم - وكان من الممكن أن يسموا باسم «المقربون» أو «الأولياء» أو «السابقون السابقون».. وهى ألفاظ وردت فى الكتاب الكريم تدل على طائفة محددة هى:

﴿ثلة من الأولين: وقليل من الآخرين﴾

وقد تحدث الكتاب الكريم عن صفاتهم، وصفاتهم على وجه العموم هى «مكارم الأخلاق» ، أو «الخلق القرآنى»، متابعين فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومستجيبين لقول الله تعالى:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا..﴾.

ولم يقتصر هؤلاء القوم على الدعوة إلى الله فى داخل الأقطار الإسلامية، وإنما نقلوها إلى خارج الأقطار الإسلامية: إلى آسيا وأفريقيا فى مجاهلها البعيدة، وإلى هذه البقاع التى ما كان يمكن أن يصل إليها إلا من تجرد لله تجردًا كاملا..

ورسم هؤلاء - بعد ممارسة وخبرة - الطريق إلى الله ومعراج المؤمن بدءًا وسيرًا وسلوكًا.

ولقد سموا هذا النهج ببعض التسميات المعبرة فى دقة عما يهدفون إليه:

لقد سموه: «مدارج السالكين»: السالكين إلى الله تعالى.

وسموه: «منازل السائرين»: السائرين إلى الله سبحانه.

وسموه: «معارج القدس».

وسموه: «منازل الأرواح».

وسموه بهذه التسمية العامة: «الأحوال والمقامات».

ولابد للسالك إلى الله من طريق يترسمه، ومن سبيل يسير على نهجه..

وإذا كان الأوائل قد ساروا متابعين للقرآن الكريم، وللسنة النبوية الشريفة عن طريق مباشر، فإنه لابد من رسم الطريق لمن لا يستطيع السير على الطريق المباشر، ولابد من رسم الطريق إيضاحًا لاستمداده من الشرع الشريف.

* * *

وهذا الكتاب عن حياة واحد من هؤلاء المقربين، وعن آرائه ودعوته، وهو يرسم المعراج إلى الله حسبما رآه أبو مدين، رضى الله عنه.

وهو مساهمة فى الدعوة إلى الصلاح والصدق والإخلاص، والرجوع إلى الله، الذى يبتدئ بالتوبة الصادقة، ويسير إلى منازل القرب من الله تعالى.

إنه دعوة إلى ذلك فى زمن سادت فيه المادية والشهوات، وانصرف الناس عن التقوى وعن مبادئ الدين.

والله نرجو أن يهدى إليه، وأن يهدى به، وأن يشرح له صدورًا، وأن يشرح به صدورًا، ويوجه به إليه، وأن يجعل له حظًّا موفورًا فى إيضاح صراطه المستقيم، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

الفصل الأوّل

حياته وشيوخه

إن الفطر الإنسانية تختلف اختلافًا شديدًا، وفى قممها هذه الفطر التى تشبه أن تكون ملائكية: صفاءً وطهرًا.

وقد تنشأ هذه الفطر التى كتب الله لها السعادة فى الدنيا والآخرة، فى بيئة تصرفها زمنًا طويلا أو قصيرًا عن طريق الله، ولكنها تتمرد يومًا ما على البيئة والظروف التى تحيط بها، وتنتفض انتفاضة جذرية عميقة، فإذا هى بعيدة بعدًا هائلا عن الظلمة والضلال، وإذا هى فى واد من النور والضياء.

إن من دعاء الصالحين قولهم مع الإمام أحمد الدردير:

«ومن علينا يا ودود بجذبة بها نلحق الأقوام من سار قبلنا»

وهذه الجذبة قد تكون جذبة من وسط المعصية، كما قد تكون جذبة من نور خافت إلى نور ساطع..

وينصح الإمام الغزالى بالتعرض لفضل الله سبحانه، ويروى:

«إن لربكم فى أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها».

ولقد كانت انتفاضة الإمام الغزالى: بنور قذفه الله فى القلب..

ويقول: وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف..

ولما سئل رسول الله عليه الصلاة والسلام عن الشرح فى قوله تعالى:

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾.

قال: هو نور يقذفه الله فى القلب..

فقيل: وما علامته؟..

قال: التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود..

وهذا التجافى عن دار الغرور هو السمة الواضحة التى كانت فى أساس انتفاضة الإمام إبراهيم بن أدهم، وهو السمة الواضحة التى كانت فى أساس انتفاضة الإمام فضيل بن عياض، والإمام الغزالى، وهم - رضى الله عنهم - وإن تعددت أسباب انتفاضتهم وألوانها فإنها كلها ترجع إلى فطرهم التى هيأها الله سبحانه لتكون بمكان القرب منه.

ومن هذه الفطر المهيأة فطرة الإمام العارف بالله أبو مدين..

إنه شعيب بن حسين الأنصارى، أصله من الأندلس، من «حصن قطنيانه» وهى قرية تابعة لأشبيلية..

وكان والده - الذى توفى فى عهد مبكر من حياة شيخنا - صاحب غنم، ولم تكن الغنم من الكثرة بحيث تسمح باستئجار راع لها، وكان شعيب أصغر إخوته، فكلفوه بأن يقوم على رعيها ورعايتها، وكانت هذه الأغنام تكلفه جهدًا وتشق عليه، ولكن الذى كان يحز فى نفسه حقيقة هو أنه فى أثناء غدوه بها أو رواحه يرى أناسًا يصلون، ويرى أناسًا يقرءون القرآن أو يتعبدون بالذكر، فكان يعجبه منظرهم فى هذا الخشوع، وفى هذا

الأمل فى ثواب الله وفى جنته، فيدنو منهم، ويستمع إليهم، ولكنه فى جهله لا يكاد يعى ما يقولون.. ويتحدث هو عن ذلك فيقول:

«فإذا رأيت من يصلى أو من يقرأ القرآن أعجبنى، ودنوت منه، وأجد فى نفسى غمًّا لأننى لا أحفظ شيئًا من القرآن، ولا أعرف كيف أصلى».

لقد حز ذلك فى نفسه، وجعله يفكر ويطيل التفكير.

إن الغنم لا تدع له فرصة للتعليم، ولا تدع له فرصة للتعبد.

كيف يصلى؟.. كيف يحفظ القرآن؟.. كيف يتعبد؟.. ما هى صيغة الذكر؟.

وكانت نتيجة ذلك كله ما عبر عنه بقوله:

«فقويت عزيمتى على الفرار لأتعلم القراءة والصلاة».

ونفذ ما قويت عزيمته عليه، وتفقده إخوته، وكان حدسهم صادقًا فى أنه فر، واتخذ أحدهم الطريق لإدراكه وإعادته، برغم أنفه، وأدركه بالفعل وفى يده حربة شهرها قائلا:

«والله لئن لم ترجع لأقتلنك».

وعاد الغلام مبتئسا حزينًا، عاد وفى نفسه حسرة، وفى فؤاده لوعة، ولكنه قدر فى نفسه أن الله لن يتخلى عنه، إنه لا يريد علوا فى الأرض ولا فسادًا، ولا محاربة لله ورسوله، وإنما يريد صلاحًا وتقوى، ويريد هداية ورشادًا،

ولن يتخلى الله عنه.

وانبثق عن حزنه أمل، وأضاء فى ليله نجم من الرجاء فى عون الله

إنه إذا كان قد خاب سعيه فى الفرار هذه المرة فربما نجح فى مرة أخرى، وسرى عنه قليلا، ونام يدبر الأمر ويدير فى نفسه الكيفية.

واستمر فى رعى الغنم ورعايتها فترة من الزمن كافية لنسيان الفرار، وكافيه لتخفيف مراقبته ومتابعة حركاته وسكناته..

إنه يقول:

ثم قويت عزيمتى على الفرار ليلا، فأسريت ليلة، وأخذت فى طريق آخر، ولكن أخاه الداهية أدركه بعد طلوع الفجر، وكان فى قلبه قسوة، وفى أخلاقه غلظ، وفى إيمانه خلل، فسل سيفه، وحمله الغضب والتعب الذى ناله من السعى طيلة الليلة على أن يضربه بالسيف، فاتقى الغلام الضربة بعصا كانت معه، وإذا بالمعجزة تحدث، واذا بعناية الله تحيط بالغلام، فإذا السيف يتكسر، وإذا العصا باقية..

ورأى الأخ ذلك، ونظر إلى سيفه أمامه، وأذهله الحادث، وإذا به يتذكر قدرة الله..

وفى لحظة يثوب إلى رشده، وتلوح بعض نسمات من الرحمة فى قلبه، فيأخذ فى الرفق، ويجلس يتحدث مع الغلام فى رفق وفى تدبر، ويشرح له الغلام ما يحب، فينصحه، ولما رأى الإصرار أخذ يوصيه، وودعه قائلا:

«ياأخى اذهب حيث شئت».

وسار الغلام... إلى أين؟

إنه لا يدرى، ولكن وجهته التى سار فيها، وطريقه الذى كان يقطعه أدى به إلى البحر..

يقول فتانا:

فسرت حتى وصلت إلى البحر، ووجدت خيمة فيها أناس، فخرج منها شيخ فسألنى عن أمرى، فأخبرته، فجلست عنده، فإذا جعت رمى بخيط فى طرفه صنارة، فأخذ حوتًا يطعمه لى مشويا، ثم قال: انصرف إلى الحاضرة حتى تتعلم العلم، فإن الله تعالى لا يُعبد إلا بالعلم..

إن الله لا يعبد إلا بالعلم!. لقد صادفت هذه الكلمة هوى فى نفس أبى مدين، وهل خرج إلا ليعبد الله؟ وهل خرج إلا ليتعلم الصلاة وقراءة القرآن؟..

وكأن الكلمة كانت إلهامًا ألهم الله هذا الشيخ قولها، فاخترقت شغاف قلب أبى مدين وثبتته على ما خرج إليه..

ولكن الكلمة فى نفسها هى شعار الصوفية، وإن هؤلاء الذين يعدون بالمئات، والذين ذكر مئات منهم صاحب الحلية، وصاحب طبقات الصوفية، وصاحب الكواكب الدرية، كلهم علماء.. إما من كبار المفسرين، وإما من

كبار المحدثين، وإما من كبار الفقهاء، بل كان فيهم كبار اللغويين وكبار الأدباء، وهكذا ساروا فى طريقهم على أساس من العلم..

إن الله لا يعبد إلا بالعلم: إنها كلمة نعلنها فى آذان صوفية العصر الحاضر، نعلنها لمشايخ الطرق، ونعلنها للمريدين، ونرجو أن يكون فى لائحة مشيخة الطرق فرض حد أدنى من العلم فى كل من يولى مشيخة أو وكالة مشيخة، وهذا الحد الأدنى يفرض فيه حفظ القرآن، وحفظ مجموعة من الأحاديث، وقراءة مجموعة مختارة من كتب الفقه والتصوف..

ولن تكون للتصوف نهضة إلا بالتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم، والتأسى به لا يكون إلا بالعلم: بسيرته، بأحاديثه، بالقرآن الذى أنزل عليه. وشعاره صلى الله عليه وسلم:

﴿رب زدنى علمًا﴾

إن الله تعالى لا يعبد إلا بالعلم. وما كان الجاهل فى يوم من الأيام قدوة، ولا مرشداً، ولا شيخاً يهدى الآخرين.

وإذا كان القائمون على التصوف الآن يشعرون بعدم الإقبال عليهم كما كان العهد فى الماضى، فعلاج ذلك أمره يسير:

أن يكونوا قدوة فى العلم، وقدوة فى السلوك: أى أن يتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم..

وعبر فتانا البحر؛ عاملا مع العمال، وخادمًا فى السفينة مع الخدم،

ووصل إلى طنجة، ولم يجد فى طنجة ما يأمله من العلم والمعرفة، فسار إلى سبته، وكان يؤجر نفسه للصيادين ليكسب حياته ، ولكنه لم يكن ليقيم على ذلك، وما كان يتأتى أن يترك رعى الغنم ليؤجر نفسه للصيادين، فحزم أمره، وأخذ طريقه إلى مراكش، ولما وصل إلى مراكش تعرف بالأندلسيين فيها، فأخذوه فى جملة الأجناد.

وكانت تجربة جديدة: إن هؤلاء الأجناد لا تحس قلوبهم بالرحمة، ولا يستشعرون شيئًا من العطف.. إنهم «يأكلون عطائى، ولا يعطونى منه إلا اليسير..».

ولقد كان فتانا فى هذه الرحلات . وفى هذه المهن: راعى، صياد، جندى.. يلاحظ ويتأمل ، ويدرس أخلاقًا مهنية.. ولكنه أيضًا كان يلاحظ - متعمدًا أو غير متعمد - مجتمعات ومدنًا، وكان كل ذلك يهيئه لحياة الداعية المستقبلة، ويعطيه فكرة عن الطبائع وألوان السلوك.

وتسير رحلته: إنه ما كان يتأتى أن يقف عند حياة أجناد الأندلس، وهو مازال فى جهل فيما يتصل بأمر دينه..

وقيل له: إن رأيت أن تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس..

وشد فتانا الرحال إلى مدينة فاس، ورحاله الذى شده هو قدميه، فما كان صاحبنا يعتمد فى أسفاره إلا على قدميه، اللهم إلا إذا كان الأمر أمر عبور البحر، فإنه إذ ذاك يؤجر نفسه للعمل فى مقابل العبور..

وإن حب المعرفة والتزود من العلم يحمل على تحمل كل صعوبة، وتخطى كل عقبة.. ووصل فتانا إلى فاس، إلى معقد الأمل فى العلم والمعرفة، ولكن إلى أين فى فاس؟ إلى أين؟ لم يكن هناك من مجال للاختيار، إن المكان الطبيعى هو الجامع..

والجوامع – إذ ذاك – كما هو الوضع فى الجو الإسلامى الصادق – كانت معاهد لتحفيظ القرآن، وكانت معاهد إعدادية، ومعاهد ثانوية، ودراسات عليا، ودراسات تخصصية.. وكان العلم فيها منطلقًا حرًّا لا تقيده قيود: تنسيق أو مجموع أو سن أو نفقات..

لقد كان الأستاذ حرًّا حرية مطلقة. إنه كان يختار المادة، والمستوى، والكتاب ، والزمن.

وكان التلميذ يختار المادة والمستوى، والأستاذ، والزمن والكتاب.

وكانت الدراسة تبدأ مباشرة من بعد صلاة الفجر. وتستمر هكذا طيلة النهار، لا يقطعها إلا الصلاة..

وكانت أوقات الصلاة مقدسة، تنتهى الدروس بمجرد أن يقول المؤذن: الله أكبر، بل من قبل الأذان بفترة كافية للوضوء لمن لم يكن متوضئًا.

وكان العلم يدرس على طهارة، ويضفى عليه جو المسجد وقارًا على وقار.

لقد كان العلم عبادة يتطهر الأستاذ لها، ويتطهر التلميذ لها، والكل

يرجون منها وجه الله سبحانه.

ولقد أدركنا فى بواكير حياتنا هذه الصورة، أو بقايا هذه الصورة فى معهدنا الخالد: الأزهر. الذى حفظ على مصر، بل على العالم الإسلامى، اللغة العربية ، والثقافة الإسلامية، قرونًا متطاولة، ثم أمد مصر فى ابتداء نهضتها الحالية بكبار المفكرين، بل وكبار الساسة والمصلحين، وما يزال يمد مصر والعالم الإسلامى بالمستنيرين المتزنين، من العلماء والمفكرين، الذين يقفون فى وجه كل انحراف، ويقفون - ما استطاعوا - حائلين دون الغزو الفكرى الذى يعمل جاهدًا على محو شخصيتنا، وجعلنا نذوب فى تيار ثقافة الغرب.

ولزم صاحبنا جامع فاس، ويقول فى صدق، وفى نوع من السذاجة:

«ولزمت جامعها، وتعلمت الوضوء والصلاة».

وكان ذلك حدثًا ضخمًا فى حياته: أن يصلى، وأن يقف بين يدى صاحب النعم التى لا تحصى. يناجيه ويحمده ويشكره ويقدسه ويستمد من مدده، ويسعد روحيًّا بأنه مع الله ، وبأن الله معه.

﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم﴾.

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾.

إنه بدأ فى الطريق الذى تجشم من أجله: الطهر.. الصلاة .. وماذا أيضًا؟..

لقد رأى الحلقات فى المسجد معقودة، كثيرة.. يشرق النور من وجوه أساتذتها، ومن وجوه طلابها..

ماذا يقولون؟.. ماذا يفعلون؟.

وبدأ صاحبنا يجلس إلى:

«حلق الفقهاء والمذكرين».

ياللعجب، أهم يتحدثون بلغة أعجمية؟ ماله لا يفقه من كلامهم شيئًا؟.

وينظر صاحبنا إلى الزملاء الذين يجلسون بجواره فيجدهم يفهمون، ويناقشون، ويتحدثون مع الأستاذ حديث العلماء الناشئين.

وأخذ صاحبنا يتنقل من حلقة إلى حلقة، ومن درس إلى درس، ويتعجب من نفسه ومن الآخرين: ما له لا يفهم فى حين هم يفهمون؟

وهذه الحالة؛ أهى طبيعية فيه؟.. هل اختصه الله بغباء لا علاج له؟.. ويتابع صاحبنا دون يأس – وما كان فى طبيعته اليأس قط – حلق الدروس حلقة حلقة، إلى أن جاء يوم سارت به العناية الإلهية إلى حلقة شيخ «ثبت كلامه فى قلبى، فسألت من هو؟ فقيل لى: إنه أبو الحسن بن حرزهم».

كان أبو الحسن بن حرزهم - إذن - أول من فتق فنون المعرفة فى قلب صاحبنا، ولقد فسر السر فى ذلك لفتانا فقال:

«إنى قصدت الله بكلامى فخرج من القلب».

من هو ابن حرزهم هذا؟ - لابد من وقفة عنده حيث كان أول من هدى أبا مدين سبيل العلم.

إنه من مدينة فاس، ولد بها، ونشأ بها ونهل من معين علمائها، فتثقف كأحسن ما يكون المثقف.

تثقف فى الفقه حتى أصبح فقيها نابهًا.

وضم إلى الفقه دراسة التصوف، فأصبح فقيهًا صوفيًّا، وأثمر ذلك الثمرة الطبيعية لهذا النوع من العلماء، وهى الزهد.. فهو فقيه صوفى زاهد.

يقول صاحب «أنس الفقير»:

وهذا الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله ابن حرزهم، ولد بفاس ونشأ بها، وكان فيها من كبار الفقهاء، وكان زاهدًا فى الدنيا، سالكًا سبيل أهل التصوف، ذا كرامات وفراسات، وكان والده من كبار الصالحين، وكذلك أخوه.

بيد أن سلوكه فى طريق التصوف كان على نمط الملامتية، والملامتية يحبون دائمًا أن يخفى أمرهم على الناس فى العبادة وفى الإقبال على الله، ويرون أن الإخلاص يتوافر بذلك فى صورة أكمل.

وللشيخ ابن حرزهم قصة مع كتاب إحياء علوم الدين، وهى قصة مشهورة، تحدث هو بها، ورواها عنه كثيرون. إنه يقول:

اعتكفت على قراءة إحياء علوم الدين للغزالى فى بيت مدة من عام، فجردت المسائل التى تنتقد عليه، وعزمت على حرق الكتاب، فلما نمت رأيت قائلا يقول: جردوه واضربوه حد الفرية، فضربت ثمانين سوطًا، فلما استيقظت جعلت أقلب ظهرى، فوجدت به ألماً شديدًا من ذلك الضرب، فتبت إلى الله تعالى مما اعتقدت، ثم بعد ذلك تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة.

ومن الأمور التى ينبغى أن تذكر فى اعتزازه بالعلم، ما حدث عنه كثيرون من أنه قدم مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة للقراءة عليه والأخذ عنه، فدخل عليه أبو الحسن وهو على سريره، فجلس أبو الحسن تحته، فقال له: أهكذا كنت تفعل مع من كنت تتعلم منه؟.. قال له: نعم، فقال له أبو الحسن: انزل إلى مكانى وأكون أنا مكانك، وهكذا ينبغى أن يكون المتعلم مع المعلم: فأجابه الأمير إلى ذلك، فنزل الأمير عن سريره وجلس عليه أبو الحسن، فلازمه وأخذه بسلوك طريق الآخرة، وأمره بالورع وضيق عليه فى المكسب، فلم تتسع حالته إلا لخبز الشعير، فكلم أبو الحسن بعض التجار فى أن يأكل عنده، فكان قوته عند ذلك التاجر، ثم بعث ذلك الأمير إلى الصحراء فجىء إليه بمال موروث فاتسع عليهما منه قوتهما.

وللإمام ابن حرزهم قصة تشبه قصة أحد الصحابة الأجلاء:

أما قصة ابن حرزهم فهى حسبما يرويه صاحب «التشوف» كما يلى، إنه يقول:

وحدثني غير واحد أنه لما توفى والد أبي الحسن عزم على قسمة ما تركه مع أخيه أبي القاسم، فلما قام إلى ورده اشتغل سره بذلك، فلما أصبح بعث إلى أخيه وقال له: احضر الشهود لأتصدق عليك بميراثى، فأبى عليه، فقال له:

إن لم تفعل تصدقت بحظى على الجذماء، فلما رآه عازمًا على ذلك أتاه بالشهود فتصدق عليه به، وقبل منه أبو القاسم الصدقة.

وقصة الصحابى الجليل هى كما يرويها الإمام مالك رضى الله عنه فى الموطأ:

عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصارى كان يصلى فى حائطه، فطار دبسى[1] فطفق يتردد يلتمس مخرجًا، فأعجبه ذلك، فجعل يتبعه ببصره ساعة، ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدرى كم صلى، فقال: لقد أصابتنى فى مالى هذا فتنة، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له الذى أصابه فى حائطه من الفتنة، وقال:

«يا رسول الله، هو صدقة لله، فضعه حيث شئت».

---

(١) الدبس: اليمامة.

ومما يُروى عن ابن حرزهم ما يلى:

يقول صاحب «التشوف»:

حدثنى محمد بن خالص الأنصارى، قال: أخبرنى أبو الحسن المعروف بأبى قرن قال:

دعا لى أبو الحسن بن حرزهم بالعفو والعافية، وقال لى: رأيت رب العزة فى النوم فقال لى: سل حاجتك.. فقلت: أسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة، فقال لى: قد فعلت.. فما أبالى بشىء يتبقى، فإن رب العزة قد أمننى، ولذلك دعوت لك بهذا الدعاء. قال أبو قرن: فوالله ما نالنى قط مكروه بحمد الله، ولقد وجدت بركة دعوته لى بذلك الدعاء.

أما عن وفاة الشيخ فقد روى أبو يعقوب التادلى المعروف بابن الزيات قال: سمعت أبا عمران موسى بن يوسف يقول: أدركت ابن حرزهم وأنا صغير ودعا لى وكان يقول: لن أصوم مع الناس هذا الشهر المستقبل، يعنى شهر رمضان، وقد كان صحيحًا ليس به بأس، ولم يبق إلا ثلاثة أيام أو أربعة من شهر شعبان، والناس يتعجبون من مقالته وهو حى وقد قرب رمضان، فأدركه الموت قبل دخول رمضان الذى كان يقول إنه لا يصومه مع الناس.

وحدث أحمد بن عيسى الأنصارى قال: سمعت أبا الحسن غير مرة يقول: أموت فى العام الفلانى، وفى ذلك العام نفسه مات، ولما كان اليوم

الذى مات فيه أتى بعض أصحابه فقال له: قدم لى من طعامك لآكل منه فإنه حلال، فقدم له خبزًا ولبنًا فأكل، ثم مر إلى الحمام، وقال لخدمته: لم يبق لكم فى خدمتى إلا اليوم، وهم يتعجبون من قوله، ثم خرج فأتى منزله ودخل بيته ونام على فراشه مستقبلا، فلما حان وقت الصلاة أتاه بعض تلامذته ليوقظه للصلاة فوجده ميتًا:

حيـاتك أنفـاس تعـد فكلما مضى نَفَس منها نقصت به جزءا
فتصبح فى نقص وتمسى بمثله ومالك معقول تُحس به الرُّزءا
تروح وتغدو غافلا كل ساعة ويحدوك حاد ما يريد بك الهزءا

هذا هو ابن حرزهم الذى تفتح له قلب أبى مدين، وكان تعليمه أول شمعة أضاءت فى حياة أبى مدين العلمية.

وكان مما قرأ عليه بعد فترة طالت أو قصرت كتاب «الرعاية لحقوق الله» الذى ألفه الإمام الحارث المحاسبى.

وكتاب الرعاية من كتب التذكير بالله النفيسة، وهو أهم كتاب ألفه المحاسبى حتى لقد عرف به المحاسبى فيقال عنه: صاحب «الرعاية».

وقد وصل فيه المحاسبى من التحليل النفسى حدا لا يكاد يجارى، وقد كان هذا الكتاب من الكتب التى قرأها الإمام الغزالى فيما قرأ من كتب المحاسبى، وقد استفاد منه فى كتابه «إحياء علوم الدين» ولا يزال ينبثق عن كتاب الرعاية أثر جميل فى الهداية والإرشاد.

ودرس أبو مدين على ابن حرزهم كتابًا آخر فى التذكير هو كتاب «إحياء علوم الدين».. للإمام الغزالى، ولقد قال فيه أبو مدين:

طالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالى.

وحقًّا قال. فإن كتاب الإحياء كتاب مبارك، وقد كان أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يدرسه لمريديه، ويحثهم على قراءته، ويقول:

كتاب الإحياء يفيد العلم.

وهو كتاب يكفى المسلم فى أمور دينه من عقيدة وعبادة وأخلاق أسمى ما تكون الأخلاق المستمدة من كتاب الله ومن سنة رسوله.

* * *

واندمج الشيخ أبو مدين بعد أن شرح الله قلبه للفهم على يد الشيخ ابن حرزهم فى جو العلم والدراسة.

فدرس كتاب السنن فى الحديث للإمام الترمذى، وهو كتاب ضخم فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيه نور الحديث النبوى، وفيه التحرى البالغ فى صحة الأحاديث من الإمام الترمذى وهو وحده كاف فى أن يرفع الإنسان فى العلم الإسلامى إلى درجة رفيعة.

وهذا الكتاب درسه على الشيخ الفقيه أبى الحسن بن غالب فقيه فاس الذى توفى عام ثمانية وستين وخمسمائة.

وكان أبو الحسن متمكنًا من علوم القوم، وكان الأولياء يحضرون مجلسه، ولقد ورث مالا كثيرًا فصرفه كله فى وجوه الخير.

أما علوم الصوفية، فقد بدأ أبو مدين دراستها على الشيخ الصالح أبى على الدقاق، وهو من كبار مشايخ الصوفية، وكان إمامًا فى ذلك، وكان يقول:

«أنا أول من أخذ منه الشيخ أبو مدين علم التصوف».

وكان من الكتب المفضلة عند أبى مدين كتاب الرسالة القشيرية وهو كتاب ألفه الإمام القشيرى، ويقول فى أوائلها:

«هذه رسالة كتبها الفقير إلى الله تعالى عبد الكريم بن هوازن القشيرى إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة».

وقد ألفها حينما رأى فى صوفية عصره أنواعًا من الانحراف عن خط التصوف الصادق، ألفها لتكون مقياسًا صحيحًا لمن أراد أن يسير على الطريق المستقيم.

والواقع أن التوفيق صاحبَ القشيرى فى المنهج وفى الموضوع.

لقد تحدث أولا عن عقائد الصوفية، وبين أنها موافقة للكتاب والسنة، وأنها تسير فى انسجام مع ما بينه أهل السنة من عقائد.

ثم تحدث عن مجموعة من الصوفية كل على حدة مبينًا عنهم بعض ما يتصل بحياتهم، وبعض ما يتصل بآرائهم، وكأنهم مرآة ينظر فيها الآخرون أنفسهم.

وتحدث ثالثًا عن مصطلحات الصوفية، وللصوفية مصطلحات خاصة بهم لا يدل معناها اللغوى على معناها الاصطلاحى، وشأنها فى ذلك شأن مصطلحات الفنون الأخرى كالأخلاق والفلسفة والنحو والفقه وغير ذلك.

وبيان هذه المصطلحات من الأهمية بمكان، إذ إن الذين يجهلونها يتحدثون عن التصوف أحاديث كلها جهل، وجهلهم بالتصوف وتخريفهم فيه آت من جهلهم بمصطلحاته، وكان لابد من بيان معانى المصطلحات.

وتحدث رابعًا عن المقامات التى يتدرج فيها الصوفى فى معراجه إلى الله، يتدرج فيها من مقام إلى مقام، حتى يصل من التوبة الصادقة إلى القرب من الله تعالى.

ثم تحدث أخيرًا عن آداب المريد، وصفات الشيخ، ومسائل تهم كل دارس للتصوف، وكل سالك طريق التصوف.

إنه كتاب لا غنى عنه فى الجو الصوفى.

وكان من الكتب المفضلة عند أبى مدين رضى الله عنه.

ولكن التصوف ليس علمًا تكفى فيه الدراسة، ويكفى فيه البحث فى الكتب، ولكنه ممارسة، وسلوك، وعمل.

ولقد أبان ذلك الإمام الغزالى فى صورة واضحة فقال:

أقبلت بهمتى على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل:

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر على من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل:

«قوت القلوب لأبى طالب المكى» رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبى، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد(١).

---

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج، فلذلك يقال القواريرى، وكان فقيهًا على مذهب أبى ثور، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧ هـ.

قال الروذبارى: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها.

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام. =

والشبلى[1]، وأبى يزيد البسطامى[2] قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت على ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال وتبدن الصفات.

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة والشبع وأسبابهما وشروطهما،

= وقال: من لم يحفظ القرآن ومن لم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عن الرسالة القشيرية).

(١) بغدادى المولد والمنشأ، وأصله من (أسر وشنه) صحب «الجنيد» ومن فى عصره، وكان شيخ وقته حالا وظرفًا وعلمًا، مالكى المذهب، عاش سبعًا وثمانين سنة ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، وقبره بـ (بغداد).

وكان (الشبلى) إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول: هذا شهر عظمه ربى فأنا أول من يعظمه..

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين، قيل إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين.

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصودًا مشهورًا بالزهد، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه.

ومن كلامه: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة (انظر الرسالة القشيرية).

وبين أن يكون صحيحًا وشبعان، وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء.

والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة.

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا.

فعلمت يقينًا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك» اهـ.

وإذا كان أبو مدين قد درس الرعاية، ودرس الإحياء، ودرس علوم التصوف، فليس معنى ذلك أنه أصبح صوفيًّا.. كلا.. إنه لابد من الممارسة والسلوك؛ والأخذ في طريق المقامات والأحوال..

وهذا الجانب الجوهري في التصوف وفي حياة أبو مدين قد قيض الله من يسير بأبي مدين فيه على السنن الموفق.. إنه:

الشيخ أبو يعزى.

وكان لهذا الشيخ أسلوب فى التربية قاس؛ ولكنه أسلوب مثمر؛ وقد كان بدء اتصال أبى مدين به كفيلا بصرفه عنه، لولا إرادة قوية فى الهداية، ورغبة صادقة فى الوصول إلى النور القلبى والشرح.

ونترك الشيخ يقص الأمر؛ إنه يقول:

ثم سمعت الناس يتحدثون بكرامات أبى يعزى؛ فذهبت إليه فى جماعة توجهت لزيارته، فلما وصلنا جبل ايروجان ودخلنا على أبى يعزى أقبل على القوم دونى، فلما أحضر الطعام منعنى من الأكل؛ فقعدت فى ركن الدار؛ فكلما أحضر الطعام وقمت إليه انتهرنى؛ فأقمت على تلك الحال ثلاثة أيام وقد أجهدنى الجوع ونالنى الذل؛ فلما انقضت ثلاثة أيام قام أبو يعزى من مكانه؛ فأتيت إلى ذلك المكان ومرغت وجهى فيه؛ فلما رفعت رأسى نظرت فلم أر شيئًا وصرت أعمى؛ فبقيت أبكى طول ليلتى:

قليل لمثلى زفرة ونحيب ... وليس له إلا الحبيب طبيب
وأمثل مايلقى المحب خضوعه ... إذا كان من يدعوه ليس يجيب

فلما أصبحت استدعانى وقال لى: أقرب يا أندلسى؛ فدنوت منه؛ فمسح بيده على عينى فأبصرت؛ ثم مسح بيده على صدرى وقال للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم؛ أو قال كلامًا هذا معناه؛ فأذن لى فى الانصراف.

وعلى الرغم من هذا اللقاء القاسي؛ عاد أبو مدين مرة ثانية وثالثة وأخذ يكرر زياراته، ويقول صاحب كتاب «أنس الفقير»:

«فنال من بركاته؛ وشاهد العجائب من كراماته».

ولقد وهب الله الشيخ أبي يعزى منحة الكرامات فكان ينثرها أينما كان؛ وكان المريدون يرهبونه ويتهافتون عليه فى آن واحد؛ وكانت كراماته مصدر جاذبية ومصدر رهبة.

وكان أبو يعزى لا يجامل ولا يدارى؛ وإنما يصف الكذاب بالكذب والسارق بالسرقة والزانى بالزنا والفاسق بالفسق؛ ويستعمل الألفاظ الجارحة؛ وتكون الثمرة التوبة والاستغفار والاستقامة؛ وإذا ما خوطب أبو يعزى فى الرفق قال: إنه مأمور..

ولقد جاء كتاب أبي شعيب من أزمور يقول له فيه:

«استر عباد الله ولا تفضحهم».

فقال: والله لولا أنى مأمور بهذا ما فضحت أحدًا ولسترت على الخلق.

ومن طرائف مايروى فى ذلك أنا أبا على مالك بن تاجورت التقى بمؤذن أبي يعزى - كما يروى صاحب كتاب التشوف - وأخذ يتحدث معه، فقال له المؤذن: عسى أن تكلم الشيخ أبا يعزى أن يستر الناس ولا يفضحهم فإن الرجل جاهل لا علم عنده، فيقول للواصلين إليه: سرقت ياهذا، وزنيت ياهذا، وفعلت ياهذا كذا وكذا..

فيذكر لكل واحد فعله، ثم انقطع كلامه فنظرته وقد منع من الكلام، وكلمته فلم يجبنى، فبينما أنا معه كذلك إذ أقبل أبو يعزى وعصاه فى يده، فسلم على وسألنى عن الحال والأهل، وجاء إلى مؤذنه ومد يده إلى حلقه يمسح عليه ويقول: يابنى صدقت، فأنا جاهل ولا أعلم إلا ما علمنى مولاى، ثم طارت علقة دم من حلقه فتكلم وأخذ يقول: أتوب إلى الله تعالى، وأبو يعزى يقول له: مم تتوب يابنى؟ وأنت قلت الحق؟ أنا جاهل لا أعرف إلا ماعرفنى مولاى.

ويقول صاحب كتاب أنس الفقير:

ولا رأيت فى الفقهاء أعظم تعظيمًا للشيخ أبى يعزى من الشيخ العبدوسى، وكان فى أكثر مجالسه يذكر لنا ماتبدي من أحواله، ويشير أن ماثم فى الأولياء مثله، وكان يحكى عنه فى باب زكاة الحرث، أنه إذا حرث يخرج للضعفاء تسعة أعشار صابته، ويتمسك بالعشر ويقول: «من سوء أدبى أن أخرج العشر وأتمسك بتسعة أعشار»..

وحدث أيضًا أن الشيخ أبا الحسن على بن حرزهم سجنه السلطان بمراكش فقال لتلامذته: لا ألبث فى السجن، فقال له: سبحان الله، اسكت، وهل سجنت إلا على هذه الأحوال، فقال لهم: «إن الشيخ أبا يعزى ها هو ذاك ينظرنى ولا يتركنى فإنه كل ما يطلبه من مولاه يعمله له»، وبينهما مسيرة خمسة أيام، فأطلق من ساعته.

هذا هو الشيخ أبو يعزى الذى تخرج عليه أبومدين فى السلوك والذى يقول عنه:

طالعت أخبار الصالحين من زمن «أويس القرنى» إلى زماننا فما رأيت أعجب من أبى يعزى، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالى.

وكانت وفاة أبى يعزى رحمه الله فى شوال من عام اثنين وسبعين وخمسمائة.

وكان من أشياخ أبى مدين، الشيخ الصالح أبو عبد الله الدقاق من أكابر الصوفية، وكان يتردد من فاس إلى سلجماسه وكان يقول:

أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف، وكان الدقاق إماما فى ذلك.

وكان للشيخ أبى مدين طريقة خاصة فى اكتساب العلم، ويتحدث هو عنها فيقول:

وكنت إذا سمعت تفسير آية من كتاب الله تعالى ومعه حديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قنعت بهما وانصرفت إلى خارج فاس لموضع خال من الناس اتخذته مأوى للعمل بما يفتح علىّ من الآية والحديث، ثم أعود إلى فاس فآخذ آية وحديثاً وأخرج إلى خلوتى.

ومن المناسب أن نذكر أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم كان إذا ..

حفظ سورة من القرآن لا يجاوزها حتى يقوم بما فيها من عمل، أو بتعبير آخر: حتى يقيمها..

وأن الطريقة المثلى ألّا ينفصل علم الخير عن عمل الخير، وأن يكون عمل الخير ثمرة فورية لعلم الخير، وهذه كانت طريقة أبى مدين، وهى طريقة الأخيار من قبله ومن بعده..

تثقف أبو مدين فى العلم فأصبح عالمًا.

وسلك أبو مدين على يد الشيخ أبى يعزى فأصبح صوفيًّا.

وانتهت بذلك مرحلة من حياته.

الفصل الثاني

الشيـخ

وقد آن لنا أن نتحدث عن أبى مدين شيخًا كما تحدثنا عنه مريدًا، يقول ابن قنقذ عن أبى مدين:

وكان يتردد إلى مجالس العلماء فى مدينة فاس وخصوصًا مجالس الشيخ أبى الحسن بن حرزهم، حتى فتح الله عليه بالمواهب العلية والأسرار الربانية وحقق التوجه والعمل، وبلغ فى مقامه الأمل... ثم انصرف مشرقًا وتردد فى بلاد أفريقية واستوطن فى الآخر «بجاية» وكثرت تلامذته وظهرت بركاته عليهم.. يقال إنه خرج على يده ألف تلميذ وظهرت لكل واحد منهم الكرامة والبركة، لذلك يقال له شيخ مشايخ الإسلام، وإمام العباد والزهاد..

تثقف أبو مدين كأحسن ما يكون المثقف، تثقف من مصادر أصيلة:

القرآن الكريم، السنن، الإحياء، الرعاية، الرسالة القشيرية..

وكان يصاحب فى دراسته القمم: السنة النبوية، الحارث بن أسد المحاسبى الذى سمى المحاسبى لدقة محاسبته لنفسه ومراقبة الله فى أعماله، حجة الإسلام الغزالى، الإمام القشيرى..

ودرس الفقه، وله فيه فتاوى نفيسة، ودرس التفسير وامتزج قلبه بنور القرآن..

وكان عابدًا فاجتمع له العلم والعبادة، فكان الشخصية الإسلامية المتكاملة..

ولم يبلغ منزلة الشيخ إلا بعد جهد مضن فى ركنى المشيخة: العلم والعبادة.

وكان الأساس الأصيل وهو العزيمةالصادقة التى جشمته المصاعب غير مبال بمتاعبها فى سبيل الهداية والقرب.

يصاحب كل ذلك من المبدأ إلى النهاية توفيق الله وعنايته سبحانه:

إذا لم يكن عون من الله للفتى　　فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ويقول القرآن الكريم التعبير الخالد الصادق:

﴿وما توفيقى إلا بالله﴾

وكل توفيق إنما هو من الله وحده..

وقد وفق الله إمامنا للوصول إلى مرتبة أصبح فيها أهلا للإرشاد والتوجيه، وتوافر فيه مابينه الله سبحانه من سبيل مستقيم للدعاة:

إن الله سبحانه يقول:

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

والدعوة إلى الله على بصيرة هى الدعوة على علم، وقد تأسس شيخنا فى هذا الجانب على أسس من العلم قوية..

ويقول الله سبحانه عن الدعاة:

﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾

وهذه الصفة لا تتأتى إلا لمن غرف من مناهل الصوفية فأصبح بكليته لله سبحانه، فهو يخشاه ولا يخشى غيره..

ويقول سبحانه:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾.

والواقع أن شيخنا كان يمثل حكمة القرآن هذه فى أسلوب الدعوة تمثيلا جميلا ومما يقوله كاتب مادة أبى مدين فى دائرة المعارف الإسلامية عن أبى مدين شيخاً وأستاذًا:

«ويبين لنا كتاب التراجم من العرب على أن أبا مدين كان متفننًا فى علوم الإسلام المختلفة نقليها وعقليها، ونرى مما تقدم أن أبا مدين كان بفاس فى الوقت الذى انبعثت فيه مذاهب الموحدين فى بلاد المغرب، والذى نهضت فيه العلوم الكلامية والفقهية بتأثير تلك المذاهب، ولكن يظهر أن الطالب الأندلسى الحديث لم يبد أى ميل نحو هذه الأنظار الجديدة لأن ذوقه وجهه إلى التصوف بصفة خاصة، وساقه فى هذا الطريق

الشيخ أبو يعزى الذى بلغ به إلى مرتبة الصوفى الكامل بالقيام والصلاة والتقشف المتواصل الشديد ولم يجد أبو مدين - لفقره المدقع - أية صعوبة فى التخلص من هذا العالم ومن ملذاته الزائلة، فتنقل متدرجًا فى كل مراتب الصوفية حتى بلغ مرتبة (القطب) «الغوث».

وبعد أن مكث عدة أعوام بفاس انتقل الصوفى الشاب إلى مكة حيث لقى - كما يقال - الصوفى الكبير عبد القادر الجيلانى فارتبط به بصلات الود، وأتم بإرشاده علومه الصوفية.

ولما عاد أبو مدين من المشرق انصرف إلى تعليم الصوفية فى بلاد المغرب فاستقر فى «بجاية» ناسكًا نسكًا شديدًا وسرعان ما اشتهر بولايته وعلمه، وهرع إليه الناس من أقصى البلاد يسألونه ويأخذون عنه وكان له وهو «بفاس» كرامات وأظهر مثلها فى أثناء رحلته فى بلاد الشرق وبعد عودته إلى «بجاية».

وكانت تعاليم أبى مدين الصوفية التى قام بنشرها فى «بجاية» تخالف مذاهب فقهاء الموحدين فى تلك المدينة، فقلق هؤلاء من شهرته التى أخذت تذيع يومًا بعد يوم، ومن مريديه الذين تزايد عددهم..

وأخذ الشيخ أبو مدين فى التدريس والإرشاد، وكان من الكتب التى يدرسها كتاب: «المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» للإمام الغزالى، وهو كتاب مبارك، يقول الإمام الغزالى أنه بث فيه بعض أسرار علم المكاشفة.

يقول أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن قنفذ:

ومن أصحاب الشيخ أبي مدين رضى الله عنه الفقيه العالم الصالح أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجى من قلعة بنى حماد، ذكر فى فهرسته أنه لقى الشيخ أبا مدين رضى الله عنه وقرأ عليه كتاب: «المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» من فاتحته إلى خاتمته، تفقه بداره ببجاية سنة إحدى وثمانية وخمسمائة.. قال:

وقيدت كلامه عليه أول يوم من غير أن أعلم أحدًا، فلما كان فى اليوم الثانى قال لنا الشيخ: لا أريد أن تقيدوا عنى شيئًا مما أقوله فى هذا الكتاب، وكاشفنا بذلك..

وكان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه يلجأ فى حل المشكلات، فيأتى بأبدع التأويلات، ذكر بعضهم أنه وقع نزاع بين الطلبة فى قوله صلى الله عليه وسلم:

«إذا مات المؤمن أعطى نصف الجنة».

فتردد الكلام بينهم فى أن المؤمنَيْن إذا ماتا استحقا الجنة بكمالها، فساروا إلى مجلس الشيخ أبي مدين رضى الله عنه ليطلعوا على ماعنده فى المسألة، فوجدوه جالسًا يقرأ رسالة القشيرى، فلما استقر بهم الجلوس سكت الشيخ أبو مدين عن الكلام الذى كان فيه، وقال: نُزيل الإشكال عن أصحابنا من غير أن يسألوه، فقال لهم: إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«نصف جنته» لأن لكل مؤمن جنة تخصه، فإذا مات أعطى نصف جنته، وبعد الحشر يعطى النصف الثانى، ثم زاد فى هذا الكلام وتكلم كيف يكشف للمؤمن من مقعده فى الجنة وتنعمه بتلك الرؤية واتصال الأرواح وغير ذلك مما يناسب هذا الكلام، وفى هذا من العلم ما لا ينتهى إلى حقيقته إلا أهل الصفا وأصحاب المواهب كالشيخ أبى مدين رضى الله عنه وجعلنا الله من حزبه بفضله..

وكان الشيخ رضى الله عنه مشغولا بالتربية والإفادة والتعليم والعبادة والإقبال على الله تعالى فى الظاهر والباطن.

وكانت تحدث له فى أثناء تدريسه بعض الطرائف، من ذلك ما حدَّث به الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله بن ماكسن الصنهاجى، وهو الذى حدث عنه الحكاية الغريبة قال: كان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه فى مجلس إقرائه فجاء رجل ليعترض عليه، فأراد القارئ أن يقرأ فمنعه الشيخ أبو مدين من القراءة وقال له: اسكت، ثم التفت إلى الرجل وقال له: لِمَ أتيت؟.. قال: أتيت لأقتبس من أنوارك.. فقال له الشيخ: ما فى كمك؟.. فقال له الرجل: مصحف.. فقال له أبو مدين: اخرجه وافتحه واقرأ أول سطر منه فإذا فيه ﴿ **الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين** ﴾ فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا؟..

يا من تَوقَّف جهلا فى كرامتهم   حَقِّق وصدِّق فإن القومَ قد صدقوا
لا يستوي متأنٍ فى بِطالته   وحازمٍ نحو باب القرب منطلقُ

ومن ذلك قصة اثنين من كبار العلماء ذهبا إليه - حينما سمعا عنه - ليستكشفا الأمر بأنفسهما، وفى القصة تقدير عظيم للشيخ أبى مدين، يقول صاحب كتاب أنس الفقير:

ومن إخوان الشيخ أبى مدين رضى الله عنه الشيخ الشهير العالم المحدث الصالح الخطيب القاضى العدل أبو محمد عبد الحق ابن عبد الرحمن الأشبيلى الحافظ صاحب الأحكام الكبرى والصغرى فى الحديث، والعاقبة فى التذكير، إلى غير ذلك من التواليف.. كانت ولادته عام ستة عشر وخمسمائة، ووفاته عام اثنين وثمانين وخمسمائة، وقبره ببجاية المحروسة خارج باب المرسى، وأول اجتماع به وقع له مع الشيخ الفقيه القاضى العدل الشهير أبى على المسيلى صاحب التذكرة فى أصول الدين وغيرها، وقبره يتبرك به خارج باب آمسيون من بجاية، وذلك أنهما كانا أخوين فى الله تعالى، مصاحبين فى العلم والدين، والزهد واليقين، واتباع سلف المؤمنين، فسمعا بالشيخ أبى مدين وأنه يأتى من العلم بفنون، وأنه اطلع من أمر الله تعالى على سره المكنون، فكانا يتعجبان ويبعدان ما عنه يسمعان، فاتفق رأيهما على الاجتماع به، والاطلاع على ما عنده، فسارا إليه إلى أحد مسجديه اللذين يجلس فيهما مع خواصه، فدخلا عليه فوجداه يفيض بالنور، ويستخرج الدرر من قيعان البحور، فلما فرغ من كلامه سلما عليه وسلم عليهما، وما اجتمعا به قط ولا رآهما، فقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه: أما هذا فالفقيه أبو محمد عبد الحق، وأما هذا فالفقيه أبو على المسيلى.. فقالا: نعم، وكان ذلك من كراماته، ثم قالا له:

بلغنا أنك لم تزد على سورة ﴿تبارك الذى بيده الملك﴾.

فقال لها: نعم كانت سورتى ولو تعديتها لاحترقت، ثم التفت إليهما وقال بنزعة صوفية: (بى قل، وعلى دل، فأنا الكل).. ثم انفصلا عنه وعلما أن لله تعالى مواهب لا يسعها المكاسب وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فواخاه أبو محمد عبد الحق رحمه الله وأقر له بالسبق فى الطريق، وكان بعد ذلك إذا دخل على الشيخ أبى مدين ورأى ما أيده الله به ظاهرًا وباطنًا يجده على حالة سنية لم يجدها قبل ظهوره فى مجلسه ويقول عند ذلك: «هذا وارث على الحقيقة».

هكذا نقل محيى الدين الإمام المحقق الصوفى أبو عبد الله محمد الحاتمى المعروف بابن العربى صاحب كتاب «مواقع النجوم» فى التصوف وغيره من التآليف، وتوفى محيى الدين هذا فى حدود الأربعين وستمائة أعاد الله علينا بركة الجميع..

ومن ذلك ما حدث الشيخ الصالح أبو الزهر ربيع من أنه سار يومًا إلى والدته وأخبرها بضيق حاله، فقالت له: اعرف لأبيك دارًا اغتصبت له وهذا رسمها واستفتى الفقهاء فى الطلب وأذنوا له.. فقال: فقلت فى نفسى: قد استفتيت فقهاء الدين ولابد أن أستفتى فقهاء الآخرة.. قال: فسرت إلى الشيخ أبى مدين رضى الله عنه فوجدته فى مسجد أبى زكرياء الزواوى بحومة اللؤلة من بجاية، وسألته رضى الله عنه فقال: استفت ربك، فسكت ثم قمنا إلى الصلاة وكانت صلاة الصبح، فلما كنت فى الركعة الثانية عرض

على شبه سنة خفيفة، ثم سمعت من يقول: أطلب حقًّا واجبًا ، اطلب حقًّا واجبًا، فأتممت الصلاة مع الإمام وجلست بمجلس الشيخ أبى مدين لاستماع الذكر فلما انصرف الناس أقبل على الشيخ أبو مدين بوجهه وقال لى: أفتاك ربك؟.. فقلت له: أفتانى يا سيدى..

يقول الشيخ ابن قنفذ: وهذا من كرامة الشيخ أبى مدين رضى الله عنه ونفع به، وهى أكثر من أن يحصرها مجلدات، وأعظم بركاته ظهور ألف شيخ على يده، ولذلك يقال له شيخ المشايخ رضى الله عنه.

ومن ذلك ما حدث به الشيخ الصالح أبو عبد الله البونى وكان من الأخيار خرج مرة من بلد العناب إلى زيارة الشيخ أبى مدين ببجاية، فقال له الشيخ الصالح الولى الشهير المنقطع إلى الله تعالى سيد أهل عصره ، وقادة أهل مصره، إمام الزاهدين، وقدوة المريدين، وحامل لواء العارفين، أبو مروان الفحصيلى رضى الله عنه ونفع به: سلم على أبى مدين وقل له: ادع لى.. فقال: فلما وصلت إليه وجدته بثياب حسنة رفيعة، برائحة المسك والطيب، وهو على حالة تشبه حالة الملوك، فسلمت عليه وجلست بين يديه ثم قلت له: يا سيدى، يسلم عليك سيدى أبو مروان الفحصيلى وقال لك: ادع لى ، فقال: نزع الله من قلبه حب الدنيا.

قال: فتعجبت من هذه الدعوة وقلت: سبحان الله، تركْت الشيخ أبا مروان فى غاية من الزهد والتقشف والإقلال ونبذ الدنيا جملة، وهذا الشيخ فيما رأيت من التمتع ويدعو له بهذه الدعوة، فلما قضيت زيارتى

ودعته ورجعت إلى بوتة فقصدت الشيخ فوجدته برقعة وبيده قصبة صيد الحوت، فسلمت عليه، فقال لى: رأيت الشيخ أبا مدين؟ فقلت له: نعم، وأخبرته بما وقع، فأخذ القصبة وكسرها ورمى بالسنارة وقال: قال الشيخ الحق.. قلت:ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل، نفعنا الله بهم، وأعاد علينا بركاتهم..

وقد ألف بعض الفضلاء فى كراماته، ويقول صاحب كتاب «أنس الفقير»:

وكان ببركة الشيخ أبى مدين وظهور عنايته، من انتسب إليه تكرمه العلماء والصلحاء والسلاطين، ما يكتب إليه أحد من الأمراء الراشدين إلا ويخصه بالسيادة.

وكتب مرة لأمير منهم فى تسريح مسجون، فسرح كل من فى السجن بسبب ذلك.

وكان من أصحاب الشيخ أبى مدين رضى الله عنه، الشيخ الصالح أبو على حسن بن محمد الغافقى الصواف، لازمه ثلاثين سنة ولم يفارقه إلا بالموت فى العباد، وحدث عنه أخبارًا، ورأى له أسرارًا وانتفع على يديه، وتحسر بعد موته عليه، ونسب كل فضيلة ظهرت فى تلامذته إليه.

وقال أبو عبد الله محمد بن على الأنصارى السقطى:

وذكرت عنده العقبات السبع المذكورة فى كتاب «منهاج العابدين»،

فقال: رأيت من قطعها فى السبعين عامًا، ورأيت من قطعها فى ساعة واحدة مثلما قطعها إبراهيم بن أدهم، وجاء التوفيق من الله تعالى.

والواقع أن الكرامة الكبرى للشيخ أبى مدين - كما كانت الكرامة الكبرى لكل ولى - هى تخريج عدد كبير من المريدين الذين يسير بهم الأولياء إلى طريق الله تعالى..

وإذا كان أبو مدين قد هدى ألف إنسان وقادهم إلى سبيل الله، فإنه مازال وهو فى دار البقاء يهدى بسيرته العطرة ومازال أتباعه ومريدوه يهدون إلى الله من جيل إلى جيل، والسر متصل، والبركة فياضة، وإن آثاره فى الموعظة مازالت تشع النور، وتسيل بالخير..

الفصل الثالث

أبو مدين في معراجه إلى الله تعالى

كيف رسم أبو مدين طريق القرب؟

إننا نبدأ فنقول إن الصراع - منذ أن وجد الإنسان - يتبلور بين طلاب الدنيا والدعاة إلى الدين، بيد أن الحق فى هذا الصراع يحتاج إلى توضيح لأن معنى «الدنيا» من وجهة النظر الدينية يلتبس على كثير من الناس.

ما هى الدنيا فى الوضع الدينى؟

إن الحياة الدنيا فى النظر القرآنى هى هذا العبث واللهو والتفاخر بالمال والزينة.. إنها حياة قارون..

ويقول الله تعالى فى ذلك:

﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون. تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين ﴾.

وقصة قارون قصة فيها عظة وعبرة، وفيها توضيح للفرق بين أن يكون السلوك «دنيا» أو أن يكون السلوك «آخرة».

ولقد كان الشيخ أبو مدين يتحدث عن الدنيا بالأمثلة ، ومن ذلك ما رواه لمريديه من القصة التالية:

قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه: جاء رجلان إلى أبي عبد الله التاودى يزورانه، فأبصرا به بين يديه هرين جعل كل واحد منهما رأسه على الآخر، فقالا له: هكذا ينبغى أن تكون الأخوة، فأخذ التاودى لقمة خبز ورمى بها إليهما فوثبا كل واحد منهما على الآخر ليأخذ اللقمة، فقال أبو عبد الله: هكذا كانت الأخوة حتى دخلت الدنيا فأفسدتها..

وقال:

من اشتغل بطلب الدنيا ابتلى فيها بالذل.

وقال:

جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة والوسواس، وقلوب العارفين محلا للذكر والاستئناس..

إن الدنيا فى الوضع الحقيقى هى لهو وعبث، ولكن الأمور - فى المال والثراء، وفى العمل وفى الكدح، وفى الملابس الجميلة، وفى اقتناء الخيل -.. إن الأمور فى كل ذلك يمكن أن تكون عبادة عليها الثواب الجزيل من الله تعالى.. وتأمل معى هذه الأحاديث:

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا.. فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس[1]».

ويقول صلى الله عليه وسلم:

«الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم[2]».

ويقول:

«من احتبس فرسًا فى سبيل الله، إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة[3]».

وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال:

«جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بناقة مخطومة فقال: هذه فى سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة[4]».

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخارى.
(٤) رواه مسلم.

ولقد استفاضت الشريعة الإسلامية فى رسم قواعد التجارة والبيع والشراء والإجارة وكتابة الدين..

واستفاض القرآن الكريم والسنة الشريفة فى الحديث عن المال وعن وجوه إنفاقه، وعن الأغنياء، وعن قواعد الغنى والثراء، وكيف يكون سلوك الثرى وتصرفه فيما يملك..

وإن الزكاة - وهى ركن من أركان الإسلام - لتدل على أن الإسلام يحث على الثراء، وإلا لنقص الإنسان ركنًا من أركان الإسلام..

وما من شك فى أن الفقير الذى لا مال عنده ليؤدى الزكاة منه لا لوم عليه ولا إثم، ومع ذلك فهو ينقص ركنًا من أركان الإسلام .

وقد يكون الفقر سببًا فى فقدان ركن ثان من أركان الإسلام وهو ركن الحج، وما من شك فى أن الحج واجب على كل من استطاع إليه سبيلا فقط -.. ومع ذلك، فإن من لم يحج لم يستكمل أركان الإسلام، والفقير - إذن - عرضة لأن ينقص فى حياته ركنين من أركان الإسلام الخمسة: أى ينقص خمسين من الأركان..

ولابد من الكدح فى الحياة، ولكن المال الذى يكون ثمرة لهذا الكدح يجب ألّا يستعبد الإنسان، والوضع الإسلامى هو أن هذا المال الذى أنعم الله به على الإنسان هو من عند الله، والإنسان مستخلف فيه، يسير فى التصرف فيه على الوضع الذى رسمه الله : الموكل.

وإن الإنسان الذى يصل إلى التحقق بقوله تعالى:

﴿لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

هو إنسان قد استقام أمره:

ولقد كان من دعاء أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى موضوع الدنيا: «اللهم وسع علىّ رزقى فى دنياى، ولا تحجبنى بها عن أخراى»..

وكان من دعائه أيضًا:

«اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا».

ومن أجمل كلمات أبى مدين الصوفى:

«كل فقير (أى صوفى)، الأخذ أحب إليه من العطاء لم يشم للفقر (التصوف) رائحة»..

ويريد أبو مدين بذلك أن الفقير يعطى من الخير المادى ومن الخير المعنوى أكثر مما يأخذ:

إنه غنى، ويجب أن يكون كذلك: ماديًّا وروحيًّا..

والحياة الدنيا فى العرف الإسلامى هى كما وصفها الله فى القرآن الكريم لهو ولعب وزينة وتفاخر، وهى التى يقول فيها الصالحون: يا دنيا غرى غيرى..

غرى غيرى بلهوك وعبثك وزينتك والتفاخر بالذهب والفضة.

وأما إذا سار الإنسان فى كل تصرفاته بالله فإنه عابد وإن كان من أصحاب الخيل المسومة والأنعام والحرث، لأن ذلك كله ينتفى عنه أنه:

متاع الحياة الدنيا.

لأنه أصبح من أعمال الآخرة..

وإذا ما تجرد الإنسان من ذل العبودية للهو والعبث ، وإذا ما تحرر من الشهوات، فقد أصبح صالحًا لمراتب القرب من الله تعالى.. يقول أبو مدين رضى الله عنه هذه الكلمة العميقة.

«من لم يصلح لخدمته شغله بالدنيا، ومن لم يصلح لمعرفته شغله بالآخرة».

ويقول:

«إذا ظهر الحق لم يبق معه غيره».

ولكننا لم نصل بعد إلى هذا الأفق - أفق ظهور الحق - وعلينا أن نتأنى قليلاً حتى نرى ما قبل ذلك من خطوات.

إن الإنسان حينما يتخلص من ذل العبودية للمادة كما بينا، عليه أن يبدأ بالخطوة الأولى..

والخطوة الأولى فى الطريق إلى الله حسبما يرى أبو مدين ويرى غيره من الصوفية هى:

التوبة:

يقول أبو مدين:

«طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة».

لابد من تصحيح التوبة أولا، وأبو مدين يستعمل كلمة: «تصحيح».. وتصحيح التوبة يتضمن رد الحقوق لأصحابها وإلا لما كانت توبة صادقة..

وتصحيح التوبة يستلزم – لا مناص – أداء حقوق الله فى الطاعات، والانتهاء عما نهى الله عنه..

ويقول أبو مدين فى الطاعات:

«من أهمل الفرائض فقد ضيع نفسه»..

وإذا ما صححت التوبة على الوضع الصادق أنتج ذلك – كثمرة ضرورية – تصحيح النية، والحديث الشريف فى النية من أسمى ما قيل فيها:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»..

وإذا استقامت النية كان:

الإخلاص:

وحديث أبى مدين عن الإخلاص حديث جميل، وكلماته عنه كلمات نفيسة، إنه يقول:

الإخلاص ما خفى على النفس درايته، وعلى الملك كتابته، وعلى الشيطان غوايته، وعلى الهوى إمالته.

وهو يضع للإخلاص علامة فيقول:

«علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق فى مشاهدة الحق».

وإذا كان أبو مدين قد عرف التصوف، وهو يسميه «الفقر» أكثر من مرة، فإنه فى بعض التعريفات ينحو به نحو الإخلاص، إنه يقول مثلا:

الفقر أمارة على التوحيد، ودلالة على التفريد.

أى أمارة على توحيد الله بالعبادة والعبودية، ودلالة على تفريده سبحانه بالاستعانة، إنه التحقق بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾..

وبعض الناس يحب المدح والثناء، وقد يعمل العمل ناظرًا إلى المدح، محبًّا للثناء، ويقول فى ذلك أبو مدين:

من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه.

وأبو مدين حينما يتحدث عن الإخلاص بهذا النفس العالى فإنه يتناسق

فى ذلك مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.. يقول الله تعالى:

﴿ألا لله الدين الخالص﴾.

والدين الخالص: هو ما ليس لغير الله فيه نصيب.

والدين الخالص: هو ما خلا من الشرْك الظاهر والشرْك الخفى، إنه ما خلا من شرْك السرائر..

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من شرْك السرائر قائلا:

«إياكم وشرْك السرائر، قيل: وما شرْك السرائر؟ قال: الرياء»..

وهذا الذى يفارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وفارقها والله عنه راض كما يقول البشير النذير..

والأحاديث والآيات القرآنية فى الحث على الإخلاص وإيجابه، وفى النهى عن الرياء وتحريمه كثيرة..

ومن أجمل المبادئ الإسلامية أن العمل الذى عمله الإنسان على الإخلاص لله وحده يستشفع به إلى الله فى الملمات فيكون سببًا فى الفرج.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين»..

ولقد تابع أئمتنا رضوان الله عليهم القرآن والسنة فى ذلك، وقد قيل لسهل بن عبد الله: أى شىء أشد على النفس؟..

فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب..

ونتيجة الإخلاص عظيمة، ويقول ابن مكحول:

«ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

وأما تعريف القشيرى للإخلاص فهو:

الإخلاص إفراد الحق سبحانه فى الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون أى شىء آخر: من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعانى سوى التقرب به إلى الله تعالى..

والإخلاص ليس مرحلة من مراحل التصوف تنتهى فى فترة من الفترات لتترك المجال لغيرها.. إنه - بالتعبير الصوفى - ليس مقامًا يسلم إلى مقام آخر، وينتهى.. كلا، وإنما هو وضع مقيم مستمر إلى نهاية حياة الإنسان.

أما المقامات التى يمر بها الإنسان فإنها تبتدئ - بعد التوبة - بالورع..

ويقول صاحب «أنس الفقير» عن أبي مدين:

وبلغ - رحمه الله - من الورع مقامًا عاليًا.

والورع هو ترك كل ما فيه شبهة.

وإن طلب الحلال الصافى من شيمة أصحاب الورع، وأكل الحلال من سمات أصحاب الورع.. وإن ترك ما فيه شبهة هو ما يعبر عنه بطيب المطعم.. ولطيب المطعم شأن كبير فى إستجابة الدعاء، وقد تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى:

﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبًا﴾

فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة.

فقال صلى الله عليه وسلم: «يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به»..

ومن هنا كان اهتمام سادتنا الصوفية بالورع، وكانت أقوالهم الكثيرة فيه، يقول يحيى بن معاذ:

الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل.

ويقول أبو عثمان:

ثواب الورع خفة الحساب.

ولقد قال يحيى بن معاذ:

«من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء»

ومن أهمية الورع فى النظرة الإسلامية أن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين من أكل الحلال، فقال:

﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بما تعملون عليم﴾.

وقال: **﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون﴾.**

وقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم - بعد أن قرر هذا المبدأ مستشهدًا بالآيتين الكريمتين «الرجل أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟».

والورع - كما يقول أبو سليمان الدارانى - أول الزهد..

«ولقد نال أبو مدين - كما يقول صاحب كتاب «أنس الفقير» - من الزهد والتحقيق منالا سنيًّا، تبعه فيه المتقون، واقتدى به المحققون، ولازمه المصدقون» أهـ.

ولقد اهتم أبو مدين بالزهد اهتمامًا كبيرًا، إنه يفصل الأمر فيه ويقول:

الزهد فريضة وفضيلة وقربة: فالفرض فى الحرام، والفضل فى المتشابه، والقربة فى الحلال..

وتحدث عن أسس التصوف، وأعلن أن الزهد أحد الأسس وبدونه لا يكون تصوف. بل رأى أن الصلاحية لسماع علم التصوف - مجرد السماع - لا تكون إلا بشروط، منها: الزهد..

والزهد - فيما يرى الصالحون - مأخوذ من قوله تعالى:

﴿لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

فالزاهد - كما يقول الإمام القشيرى - لا يفرح بموجود، ولا يتأسف على مفقود منها.

ويقول الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

ومن ذلك نلاحظ أن الزهد مسألة قلبية، وأن الصلة بينه وبين الثراء ليست صلة تعارض، لأنه قد لا يملك الإنسان شيئًا ومع ذلك فهو غير زاهد، مادام قلبه معلقًا بالدنيا، وقد يكون الإنسان من ذوى الثراء العريض، وهو زاهد مادام قلبه ليس معلقًا بالدنيا.

وإذا تمكن الإنسان من التحقق بقوله تعالى:

﴿لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

فقد أصبح فى عافية..

ويقول فى ذلك أبو مدين:

الزهد عافية.

وإذا تاب الإنسان، والتزم الورع، وأصبح زاهدًا، فإنه يكون قد قطع مرحلة لا بأس بها من مراحل التمهيد للبدء فى التصوف.

إنه بالورع والزهد يكون قد انتهى من عقبات الجانب المادى الذى يحجبه عن السير إلى الله..

ولكن الورع والزهد حينما يقف الإنسان عندهما فإنه يكون ورعًا زاهدًا ولا يكون صوفيًّا، وهما إذا كانا تمهيدًا موفقًا من الناحية المادية، فإنه لابد من تمهيد من الناحية النفسية..

وإذا كانت التوبة أساسًا قويًّا للورع والزهد، فإنها أيضًا أساس قوى للتمهيد النفسى..

إن التوبة يتجه إليها الإنسان إنما تكون بزاجر قلبى، فإذا لم يكن هذا الزاجر موجودًا فلا توبة، ويقول أبو مدين بحق:

من لم يجد فى قلبه زاجرًا فهو خراب.

وإذا كان الزاجر أساس التوبة والباعث عليها فإنه لابد لصدق التوبة من:

المحاسبة:

ولقد تحدث أسلافنا رضوان الله عليهم عن المحاسبة، ومن المحاسبة أخذ لقب «المحاسبى» وهو الحارث بن أسد: كان يحاسب نفسه على الصغير من الأمور والكبير منها، ولقد ترك كتابًا فى المحاسبة يبين فيه دقيق المحاسبة.

ولقد تعمق فيه بصورة لا تكاد تجارى..

والمحاسبة: هى أن يحاسب الإنسان نفسه على كل عمل يأتيه فيزنه بميزان الشرع، ويزنه بميزان الإخلاص، ويصلح حاله فى الوقت إن رأى تقصيرًا، ويستغفر ويتوب ويعزم على أن يحسن فيما يستقبل من أعماله، ويلازم طريق الحق، ويحسن فيما بينه وبين الله تعالى وذلك فى مراعاة القلب.. فإذا ما كان كذلك أمكن أن يرقى إلى درجة:

المراقبة:

ويقول أبو مدين فى ذلك:

«بالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة».

والمحاسبة - إذن - تمهيد للمراقبة..

والمراقبة هى اليقين بأن الله عليه رقيب، إنه سبحانه يقول:

﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾.

ويقول: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾.

ويقول: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾.

وهو سبحانه ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾.

يقول الإمام القشيرى فى المراقبة:

«وحفظ الله مع الأنفاس، وراقب الله تعالى فى عموم أحواله، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب، ومن قلبه قريب، يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله..

ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة»..

ومهما قال أسلافنا فى المراقبة فإنهم لن يصلوا إلى مستوى الآيات القرآنية التى ذكرناها..

التوبة الصادقة - إذن - ينبثق عنها الإخلاص، وكأنه جزء من أجزائها، ثم يتفرع عنها فى الجانب المادى الورع والزهد، ويتفرع عنها فى الجانب النفسى المحاسبة والمراقبة، ويكون العبد بذلك قد تهيأ للدخول فى الطريق الموصل إلى القرب: القرب الخاص..

وبعض الناس يقف عند الورع فى الجانب المادى: إنه محمود، وهو من أهل اليمين.

وبعض الناس يقف عند الزهد: إنه من الزاهدين وذلك محمود.

وبعض الناس يقف فى الجانب النفسى عند المحاسبة: إنه من المحمودين.

وبعضهم يرقى إلى مقام المراقبة.. وكل ذلك محمود مشكور.

ولكن ذلك نهاية لخطوات هى وسائل تجعل النفس جديرة بأن تستقبل خطوات أخرى هى من صميم الطريق الصوفى..

وقبل أن نصل إلى صميم الطريق الصوفى نقف وقفة عند بعض إرشادات أبى مدين لمريدى التصوف..

أولا – عن الدعاوى:

إنه يقول:

من رأيته يدعى مع الله حالا لا يكون على ظاهره شاهد منه فاحذره.. وإحدى آفات التصوف هم هؤلاء الذين يدعون مقامات، ويزعمون كرامات، ويتحدثون عن درجات فى القرب سنية، مع أنهم فى أداء الفروض مقصرون، وفى الذكر فاترون.. ولقد حذر الصوفية الصادقون منهم على مر الزمن، ومن كلماتهم فى ذلك:

إذا رأيت إنسانًا يسير على الماء، أو يطير فى الهواء، فلا تعبأ به حتى تراه عند الأمر والنهى..

أى إنه إذا كان يسير مع الأمر أداء، وينتهى عما نهى الله عنه، فإنه محل للثقة، أما إذا كان غير ذلك فاحذره..

ويقول أبو مدين:

«من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة دعته لذلك فهو مفتون، وكل من ادعى مع الله حالة ليس على ظاهره منها شاهد فاحذروه»..

إن أبا مدين يكرر هذا النصح على أنحاء شتى حتى يكون الأمر واضحًا.

وهناك من يتعلقون بدعوى الأمانى، إنهم لا يعملون فى جد وإنما حياتهم أمانى، وعنهم يقول أبو مدين:

«من تعلق بدعوى الأمانى لا يفارق التوانى»..

إن الله لا يعبد بالأمانى، ولا يصل الإنسان إلى مقامات القرب بالأمانى.

أما إذا تساءلت عن أساس الدعاوى فإن أبا مدين يقول:

«الدعوى من رعونة النفس».

وصدق، فإن المتزن المستبصر لا يدعى، وماذا تفيد الدعوى إذا نظرنا إلى حقائق الأمور؟..

والمدعون معرضون لأمرين، وقد وقع فيهما الكثيرون:

إنهم معرضون للسير نحو البدعة حتى يتميزوا عن غيرهم.

وهم معرضون - لأنهم مدعون - لفتنة النساء.

وعن ذلك يقول أبو مدين:

احذر صحبة المبتدعة إبقاء على دينك.

واحذر صحبة النساء إبقاء على إيمان قلبك.

ثانيًا - الواجبات:

يقول أبو مدين:

«من أراد الصفا فليلتزم الوفا» اهـ..

الوفاء بالفروض، والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى:

«ما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ من أداء ما افترضته عليه».

والوفاء فى العهود.

والوفاء بالعقود.

والوفاء للمصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك حبه صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلنها فى صراحة قائلا:

«والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده والناس أجمعين».

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾.

ولقد قال عمر يومًا للرسول صلى الله عليه وسلم: أنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى.. فقال صلى الله عليه وسلم: «لا ياعمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك».. فقال عمر: والله لأنت الآن أحب إلى من نفسى التى بين جنبى - فقال صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر».

ومن الوفاء للمصطفى صلى الله عليه وسلم الاقتداء به فى الإكثار من النوافل، والنوافل هى سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى:

«وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه».

ومن الوفاء للمصطفى صلى الله عليه وسلم اتخاذه أسوة فى أخلاقه وقد كان خلقه القرآن، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾.

ومن الوفاء للمصطفى صلى الله عليه وسلم طاعته، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

وتحكيمه: والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾.

إن من أراد الصفاء فليلتزم الوفاء لله ولرسوله.

أما من لم يلتزم الوفاء فإنه لا يصلح للقرب، يقول أبو مدين له:

«المهمل فى الأحوال لا يصلح لبساط الحق».

وثالثًا - إيثار الحق سبحانه:

يقول أبو مدين:

ما عرف الحق من لم يؤثره.

ويقول:

الحق تعالى مطلع على السرائر والضمائر فى كل نفس وحال، فأى قلب رآه مؤثرًا له حفظه من الطوارئ والمحن، ومضلات الفتن..

وجزاء المؤثر لله - إذن - حفظه من طوارئ الليل وطوارئ النهار، إلا طارقًا يطرق بخير، وحفظه من مضلات الفتن، حفظه من ذلك كله فى حياته، وكفى بذلك مكافأة.

ويحذر أبو مدين من الميل إلى غير الله ويقول:

إياك أن تميل إلى غير الله فيسلبك لذة مناجاته.

إن فى المناجاة لذة، وإن فى سلب هذه اللذة عذابا.

ويصف أبو مدين بعض أحوال السالكين إلى الله فيما يتعلق بشعورهم المرهف وروحهم الشفافة، فيقول:

الحضور مع الحق جنة، والغيبة عنه نار، والقرب منه لذة، والبعد عنه حسرة، والأنس به حياة، والاستيحاش منه موت.

رابعًا - الحرية:

وإن للحرية مكانة جميلة فى التصوف، وفهم الصوفية للحرية فهم فى غاية الجمال، يقول أبو مدين:

«ما وصل إلى صريح الحرية من بقى عليه من نفسه بقية».

إن الإنسان عبد إذا استعبده المال أو السلطان أو الجاه أو الهوى أو الشهوات، والحرية أن يتحرر الإنسان عن كل هذه القيود التى تستعبده.

ويقول الإمام القشيرى عن فهم الصوفية للحرية:

إن الذى أشار إليه القوم من الحرية هو: ألّا يكون العبد تحت رق شيء من المخلوقات، لا من أعراض الدنيا، ولا من أعراض الآخرة، فردًا لفرد (أى الله)، لم يسترقه عاجل الدنيا، ولا حاصل هوى، ولا آجل منى ، ولا سؤال ولا قصد ولا أرب (أى حاجة) ولاحظ.

وهذا فهم جميل حقًّا للحرية، أن تتحرر من رق الأغيار، وحقيقة الحرية -إذن- فى كمال العبودية لله سبحانه، وكمال العبودية له تحرر من كل ما سواه.

إن الحرية الحقة هى فى التحقيق بـ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

ومن أجمل ما قرأت من كلام الشبلى أنه سئل:

لم سمى الصوفية بهذا الاسم؟..

فقال: لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما تعلقت بهم تسمية، إنه يريد أن يتحرر الإنسان حتى من التسمية.

وهى كلمة تشبه كلمة أبو مدين: التحرر من النفس، والبقاء بالحقائق..

ويرى أبو مدين أن اليقين بالحقائق إنما هو محو مستمر للفردية الشخصية ، إنه يقول:

«كل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسمه فليست بحقيقة».

والإنسان – إذن – حر ما دامت الأهواء والشهوات، أو بتعبير أدق «النفس» لا تستعبده..

وهو حر ما دامت الحقائق تحتل مكان الأهواء والنزعات والشهوات.. وهو حر مادام يهتدى بالحق أينما كان.

ولقد كان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم:

«اللهم أرنى الحق حقًّا وارزقنى اتباعه، وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه».

وهذه الحرية التى يعنيها الصوفية تسير فى نسق واحد مع قول حارثة رضى الله عنه:

«عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها».

وهى حرية بعيدة كل البعد عن حرية المذهب السوفسطائى الجديد، أعنى مذهب الوجودية..

والوجودية ليست مذهبًا بمعنى الكلمة، وإنما هى مجموعة من الأهواء بعدد الذين يتخذونها شعارًا ، وهى أهواء مختلفة متضاربة متعارضة لا تكون مذهبًا، ولا تستند إلى منطق سليم، وصدق فيها قول الله تعالى:

﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء﴾.

ومن أجمل ما قرأت عن الحرية الصوفية أن:

مقام الحرية عزيز، ولو صحت صلاة بغير القرآن لصحت بهذا البيت:

أتمنى على الزمان محلا   أن ترى عيناى طلعة حر

والآن نتساءل: علام أسس التصوف، أو علام أسس الفقر على حد تعبير أهل المغرب؟..

إن الإمام أبا مدين يقول:

«أسس هذا الشأن على الزهد والاجتهاد»..

لابد من الزهد كما تحدثنا من قبل - ويصل أبو مدين بأمر الزهد إلى أقصى ما يتصور فى شأنه، إنه يقول:

«من لم يصلح لخدمته شغله بالدنيا، ومن لم يصلح لمعرفته شغله بالآخرة»..

ولعل التعمق فى معنى الزهد يجعل صاحبه لا يرى أعماله بعين الاعتبار والتقدير، ويقول فى ذلك أبو مدين:

«من لم يصلح لمعرفته شغله برؤية أعماله».

وفى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لن يدخل أحدكم الجنة بعمله.. قالوا: ولا أنت يا رسول الله.. قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته»..

ورؤية الأعمال حجاب، ومن أجل ذلك نبه عليها أبو مدين.

وإذا كان قد أسس هذا الشأن على الزهد، فإنه أسس أيضًا على الاجتهاد كما يقول أبو مدين.

والاجتهاد إنما هو اجتهاد فى ذكر الله سبحانه بأشمل وبأعم ما يصلح عليه كلمة الذكر: الذكر باللسان، والذكر بالقلب، والتذكر الدائم لله، والتفكر فى ملكوته..

ولأبى مدين فى كل ذلك كلمات جميلة حاسمة، إنه يقول:

«نسيان العبد للحق تعالى طرفة عين خيانة».

ويقول:

«الغيبة عن الحق خيبة».

ويقول:

«الترة الاشتغال بالخلق عن الخالق».

أما تعظيم الله سبحانه وتعالى فإنه يقول عنه:

«التعظيم امتلاء القلب بجلال الرب».

ومن عرفه الله - كما يقول أبو مدين - استفاد منه فى اليقظة وفى النوم، والاجتهاد - الذى هو الركن الثانى من هذا الأساس يعتبره الصوفية ركنًا

قويًّا فى الطريق إلى الله تعالى، ويقول الإمام القشيرى فيه معبرًا عن رأى الصوفية على وجه العموم:

والذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة فى هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر..

والذكر على ضربين:

ذكر اللسان، وذكر القلب.

فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب، فإن كان العبد ذاكرًا بلسانه وقلبه فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه..

ولم يتحدث الصوفية عن الذكر بالأسلوب النثرى فحسب، وإنما تحدثوا عنه شعرًا جميلًا، ومن ذلك ما كان الشبلى ينشده فى مجلسه:

ذكرتك، لا أنى نسيتك لمحة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهام على القلب بالخفقان
فلما رآنى الوجد أنك حاضرى ... شهدتك موجودًا بكل مكان
فخاطبت موجودًا بغير تكلم ... ولاحظت معلومًا بغير عيان

ومن خصائص الذكر ما ذكر الإمام القشيرى، من أنه:

غير مؤقت، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله:

إما فرضًا وإما ندبًا.. والصلاة - وإن كانت أشرف العبادات - فقد لا تجوز فى بعض الأوقات، والذكر بالقلب مستدام فى عموم الحالات..

والصوفية فى موقفهم هذا من الذكر إنما يتابعون ما أمر الله سبحانه وتعالى به، وما حث عليه فى كتابه الكريم - إن الله سبحانه وتعالى يصف أولى الألباب فيقول:

﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

ويقول الإمام القشيرى:

ومن خصائص الذكر أنه جعل فى مقابلته الذكر، قال الله تعالى:

﴿فاذكرونى أذكركم﴾.

ويقول الإمام القشيرى:

«وفى خبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن الله تعالى يقول:

«أعطيت أمتك ما لم أعط أمة من الأمم. فقال: وما ذاك يا جبريل؟.. فقال: قوله تعالى: ﴿فاذكرونى أذكركم﴾.. ولم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة».

ولقد استفاض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث عن الذكر استفاضة ملأت كتبًا بأكملها، وألفت فى ذلك كتب كثيرة، وأبواب مستفيضة فى كتب السنة.

لقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذكر فى صورة الاستغفار، وعن الذكر فى صورة الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن الذكر فى صورة التسبيح، وعن الذكر فى صورة الحمد، وعن الذكر فى صورة التكبير، وعن الذكر بلا إلٰه إلا الله، وعن فائدة الذكر.

وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذكر، وأبان أن مجالس الذكر إنما هى رياض من رياض الجنة..

ومن الحق أن نقول مع الإمام القشيرى:

إن الذكر هو العمدة فى طريق القوم.

وإذا ما استرسل الإنسان فى الذكر أثمر الذكر أثمارًا كثيرة: منها التوكل.. ويقول أبو مدين:

«توكل على الله حتى يكون الغالب على ذكرك، فإن الخلق لن يغنوا عنك من الله شيئًا»..

وموضوع التوكل من الموضوعات التى أثارت الجدل كثيرًا دون أن يكون هناك مبرر لهذا الجدل، فإن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتوكل عليه، فقال سبحانه آمرًا:

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾.

أترى أن الآية تحتمل تأويلا أو صرفًا عن المعنى الظاهر؟

أليس هذا أمرًا صريحًا بالتوكل على الله؟

أليس فى هذا بيان أن التوكل من الإيمان؟

ويقول الله سبحانه:

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

أما ثمرة التوكل فإن الله سبحانه وتعالى يذكرها بقوله:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

أما تفسير التوكل فقد كان سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم طيلة حياته تفسيرًا وتوضيحًا لسلوك المؤمنين.

لقد كان مناضلا طيلة حياته، مكافحًا فى كل لحظة تمر عليه، وكان جيش المسلمين الذى يقوده رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الذى يولى عليه أحد أصحابه ينتصر أحيانًا فيكون الحمد والشكر، وينهزم الجيش أحيانًا فلا يكون جزع ولا فزع، وإنما يكون رضا وتسليمًا.

وسواء انتصر الجيش أو انهزم فإن الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الحالة وفى تلك متوكل على الله.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم، يعد لكل أمر عدته، ويدبر ما يتناسب مع الظروف والحالات التى يمر بها، وما كان يترك شيئًا للمصادفة..

ولقد جاء مرة رجل على ناقة وقال له: يا رسول الله، أأدعها وأتوكل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: اعقلها وتوكل.

وما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حسم الأمر بقوله وسلوكه فليس هناك مجال للحديث فى الموضوع، فإذا ماكان هناك من أعداء التصوف من يثيرون الموضوع جهلا أو تجاهلا مفسرين التوكل بصورة لا تتفق مع الوضع الصادق، ومنتقدين للصوفية فى فهمهم له، فإن ذلك دليل واضح على سوء نيتهم نحو الصوفية.

ويقول الإمام القشيرى معبرًا عن رأى الصوفية فى هذا الموضوع:

«واعلم أن التوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى، فإن تعثر شىء فبتقديره، وإن اتفق شىء فبتيسيره».

ويقول ابن عطاء، وقد سئل عن حقيقة التوكل:

«ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولاتزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها».

ومن أجمل ما قيل فى التوكل ما قاله سهل بن عبد الله:

«من طعن فى الكسب فقد طعن فى السنة، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان»..

وحينما نتدبر كلمة سهل – وهو من زعماء الصوفية وأئمتهم الكبار نجد كلمته حقًّا لا مرية فيه.. لقد كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحركة والكسب والنضال والكفاح الذى لا يفتر.. أما الإيمان فإنه السكون إلى ما قضي وقدر نتيجة لحركة الإنسان وكسبه، سواء أكانت هذه النتيجة محققة الهدف الذى كانت من أجله الحركة والكسب أم لا؟

ولا تعارض بين الكسب والتوكل، فالكسب عمل بالجوارح أمرنا به؛ والتوكل اطمئنان قلبى إلى حكمة الله أمرنا به.

وإذا استمر الذكر اتجه القلب شيئًا فشيئًا إلى توحيد الوجهة والمقصد يقول أبو مدين:

ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليه حجب عن غيرها.

أما هذه الوجهة فلأبى مدين كلمات نفيسة، منها:

اجعل الحق مقصدك ووجهتك.

ويقول هذه الكلمة التى تحتوى على إشارات هى فى غاية السلامة والصدق: من عرف أحدًا لم يعرف الأحد، والحق ما بان عنه أحد من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل به أحد من حيث الذات والصفات.

وكلمته الأخيرة هذه ترشد إلى موقفه من وحدة الوجود، وأنه بعيد عنها كل البعد.. ومهما قال المستشرقون عن الصوفية الصادقين ووحدة الوجود فإنهم مخطئون فى بداهة حينما يثبتونها زاعمين أن هذا أو ذاك من زعماء الصوفية يقول بها.

ويستمر الاجتهاد فى الذكر فيقود الإنسان إلى:

الأنس.

والشوق.

والمحبة.

ويقول أبو مدين:

الخالى من الأنس والشوق فاقد المحبة.

فإذا ما كان الأنس والشوق والمحبة واستمر الذكر كانت:

المعرفة:

وهنا يكون السالك قد وصل إلى رتبة الصوفى أو الفقير..

ولأبى مدين هنا كلمات منها:

الفقر أمارة على التوحيد، ودلالة على التفريد، وحقيقة الفقر ألا تشاهد سواه..

ويقول:

«للفقر نور مادمت تستره، فإذا أظهرته ذهب نوره».

ويقول:

الجمع ما أسقط تفرقتك، ومحا إشارتك، والوصول استغراق أوصافك، وتلاشي نعوتك.

أما ثمرة التصوف فهى ما عبر عنها أبو مدين تعبيرًا صادقًا بقوله:

«ثمرة التصوف تسليم كله».

إن ثمرته تسليم لله سبحانه وتعالى تسليمًا كاملا، وهذا التسليم الكامل تعبر عنه صيغ كثيرة فى الجو الإسلامى، منها مثلا: كلمة الإسلام نفسها، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الإسلام ما هو؟.. فقال: «أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك»، وإسلام القلب لله وحده لا شريك له هو ذروة التسليم..

ومنها كلمة: لا حول ولا قوة إلا بالله، وهى كما يقول الخليل إبراهيم عليه السلام من غراس الجنة، فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لقيت إبراهيم صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى بى فقال يا محمد، أقرئ أمتك منى السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها

قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[١].

وهي كما يقول سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم كنز من كنوز الجنة. فعن أبي موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟.. فقلت: بلى يا رسول الله قال: لا حول ولا قوة إلا بالله[٢]».

وإذا شهد الإنسان حقًّا أن لا إله إلا الله تحطمت أصنام الشرك فى نفسه. الشهوات، الجاه، المنصب، الثراء، الاستعلاء، الغلبة، العجب، الكبرياء.. فأصبح تسليما كله، تسليما تاما.

ومنها التوحيد.

توحيد الله فى العبادة إياك نعبد.

وتوحيده فى الاستعانة: وإياك نستعين.

وتوحيده فى السؤال، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف[٣]».

---

(١) رواه الترمذى وحسنه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذى.

وعن أبي ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا .

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم.

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم.

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم.

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم.

يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى.

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا.

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا..

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد

خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه[1]».

والتوحيد تسليم كله، إنه تسليم تام..

والحمد لله تسليم.
والله أكبر تسليم.

والإيمان بأن الله مالك الملك فى العظيم من أمر الملك واليسير منه.. تسليم..

والإيمان بأن لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله تسليم.
والإيمان بأن لا معطى إلا الله ولا مانع إلا الله تسليم.

وصورة التسليم التامة الجميلة الكريمة العظيمة هى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، والتى عبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾.

هذا التسليم هو ثمرة التصوف.

وهذا التسليم هو مدار دعوة أبى مدين ومركزها وسنامها.. وقد وصل أبو مدين إلى التسليم، وحينئذ تكلم عن الشيخ وقال كلمته الجامعة:

الشيخ من هذبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه».

---

(١) رواه مسلم.

إنه يهذب ويؤدب، وينير الباطن، وحينما يكون الشيخ متمكنًا من إنارة الباطن بسبب لألاء باطنه هو فإنه ينقل المريد بسرعة من:

«ظلمات البدعة إلى نور السنة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق، ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة، ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف، ومن ظلمات الهوى إلى نور التقوى، ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول القوى، ومن ظلمات الكون إلى شهود المكون..».

وكان أبو مدين من هؤلاء الذين يتلألأ باطنهم، وأخذ يجاهد طيلة حياته فى سبيل دعوته على هذا النسق..

وقال فيه العارف الخواص رضى الله عنه:

كان مذهب الشيخ رضى الله عنه تقريب الطريق على المريدين، ونقلهم إلى محل الفتح من غير أن يمر بهم على الملكوت خوفًا عليهم من تعشق نفوسهم بعجائب الملكوت..

ولقد تحدثت دائرة المعارف الإسلامية عن أبى مدين وقال كاتب مادة أبى مدين ما يلى:

ويمكن أن نلخص تعاليم أبى مدين كلها فى هذا البيت الذى كان يردده دائمًا كما يقول يحيى بن خلدون:

الله قل وذر الوجود وما حوى   إن كنت مرتادًا بصدق مراد

الفصل الرابع

من حكمه

قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه لواعظ كان ديدنه الوعظ عن طريق الترهيب:

«لا تقنط الناس وذكرهم بأنعم الله تعالى».

وقال: «من خدم الصالحين ارتفع بخدمته»..

وقال: «أبناء الدنيا يخدمهم العبيد والإماء، وأبناء الآخرة: الأحرار والكرماء».

وكان رضى الله عنه يقول:

«شاهد مشاهدته لك، ولا تشاهد مشاهدتك له».

وكان رضى الله عنه يقول:

«القريب مسرور بقربه والمحب معذب بحبه».

وكان يقول: «من تحقق بعين العبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء».

وكان رضى الله عنه يقول: «من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتون، وكل من رأيته يدعى مع الله حالا، لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره».

وكان يقول: «أغنى الأغنياء من أبدى له الحق حقيقة من حقه، وأفقر

الفقراء من ستر الحق حقه عنه».

وقال: «من حرم احترام الأولياء ابتلاه الله بالمقت من خلقه».

ومن كلامه رضى الله عنه: «أسماء الله تعالى بها تعلق وتخلق وتحقق، فالتعلق الشعور بمعنى الاسم: والتخلق أن يقوم بك معنى الاسم، والتحقق أن تفنى فى معنى الاسم».

وقال: «من قطع موصولا بحضرة ربه قطع به، ومن شغل مشغولا بربه أدركه المقت فى الوقت».

ومن كلامه: «ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها».

وقال: «لا يصلح سماع هذا العلم إلا لمن حصلت له أربعة: الزهد، والعلم والتوكل، واليقين».

وقال: «ما عرف الحق من لم يؤثره، وما أطاعه من لم يشكره».

وكان يقول: «الفقر فخر، والعلم غنم، والصمت نجاة، واليأس راحة، والزهد عافية، نسيان الحق طرفة عين خيانة».

الفصل الخامس

الشاعر

وكما كان أبو مدين عالمًا :محدثًا ، فقيهًا صوفيا، فإنه كان شاعرًا وشعره شعر جميل فى اللفظ والتركيب، وثرى فى المعانى، فهو شعر مستكمل النفاسة لفظًا ومعنى. والبعض منه يغنى به وينشد فى محافل الذكر، وقد عنى ببعضه كبار المفكرين، وها هو ذا العالم الصوفى الجليل ابن عطاء الله السكندرى مؤلف الحكم الذى جمع بين علوم الشرع وعلوم التصوف يعنى بإحدى القصائد فيكتب عليها شرحًا لطيفًا، وقد أخذنا من شرحه النفيس بعض تعليقات أو شرح جعلناها هوامش لبعض أبيات القصيدة.

ويعنى بالقصيدة نفسها الشيخ الأكبر الإمام محيى الدين بن عربى فيخمسها.. وبهذه القصيدة نبدأ فنذكرها ثم نذكر تخميسها للشيخ الأكبر، ونحب أن نذكر أن لفظ «الفقير» ولفظ «الفقراء» يقصد بها «الصوفى» و«الصوفية» إنه الفقير إلى الله، ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى تعريف الفقير:

الفقراء جمع فقير، والفقير هو المتجرد عن العلائق، المعرض عن العوائق لم يبق له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالى، وقد أعرض عن كل شيء سواه وتحقق بحقيقة - لا إله إلا الله محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

القصيدة

١ - مالَذَّةُ العَيْش إلاّ صُحْبَة الفُقَرَاء
هُمُ السّلاطينُ والسَّاداتُ والأمرَا
٢ - فاصحَبْهُمُو وتأَدَّبْ فى مَجَالِسِهِمْ
وخلِّ حَظَّكَ مَهْمَا قدموكَ ورَا
٣ - واسْتَغْنم الوَقْتَ واحضرْ دائمًا مَعَهُم
واعلم بأَنَّ الرِّضا يَختصُّ من حضَرَا
٤ - ولَازِم الصَّمْتَ إلَّا إنْ سئلتَ فَقُل
لا علم عندى وكُنْ بالجهلِ مُسْتتِرَا
٥ - ولاتَرَ العيبَ إلا فيك مُعتقِدًا
عَيْبًا بَدَا بيِّنًا لكنَّه استَتَرَا

يقول ابن عطاءالله :

(١) الفقير هو المجرد عن العلائق المعرض عن العوائق لم يبق له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالى وقد أعرض عن كل شىء سواه وتحقق بحقيقة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

يقول ابن عطاء الله :

(٢) الصحبة شبح والأدب روحها فإذا اجتمع لك بين الشبح والروح حزت فائدة صحبته وإلا كانت صحبتك ميتة، فأى فائدة ترجى من الميت.

٦ - وحُط رَأْسَكَ واستغفرْ بلا سَبَبٍ
وقُمْ على قَدَمِ الإنصاف مُعتذرًا

٧ - وإنْ بَدَا منك عيبٌ فاعترف وأقِمْ
وَجْهَ اعتذارِكَ عما فيك منك جَرَى

٨ - وَقُلْ عُبَيْدكم أولى بصفحكُمْ
فسامحوا وَخُذُوا بالرِّفقِ يا فُقَرَا

يقول ابن عطاء الله:

(٦) أى تواضع وانكسر. وحط أشرف ما عندك - وهو رأسك - فى أخفض ما يكون - وهى الأرض - لتحوز مقام القرب. كما ورد فى الحديث: «أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى وهو ساجد». لأن قرب العبد بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته. وأشهد نفسك دائمًا مذنبًا، ولو لم يظهر عليك سبب الذنب، فإن العبد لا يخلو من تقصير. وقف على قدم الانصاف من ذنوبك خجلا من سيئاتك وعيوبك، فإن من عامل المخلوق هذه المعاملة أحبه ومن يشهد له ذنبًا وكانت مساوية عنده محاسن فكيف إذا عامل بهذه المعاملة صاحبه الحقيقى الذى إذا تحققه فليس له صاحب سواه. كما ورد فى الحديث: «اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل والمال والولد».

(٧) (أى) ليكن شأنك دائما التواضع والانكسار وطلب المعذرة والاستغفار سواء وقع منك أو لم يقع. وإن بدا منك عيب أو ذنب فاعترف واستغفر فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له وليس الشأن ألا تذنب. إنما الشأن أن تصر على الذنب كما ورد «أنين المذنبين عند الله خير من زجل المسبحين عجبًا وافتخارًا» ولذلك قلت فى الحكم «ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول وقضى عليك بالذنب وكان سببًا للوصول» «رب معصية أورثت ذلا وانكسارًا، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارًا».

(٨) السماحة: لب الطريق ومن تخلق بها فقد زال عن قلبه كل تعويق.

٩ - هُمْ بـالـتـفـضـل أولَى وهـوَ شيـمـتـهـمْ

فَـلاَ تخفْ دَرَكًـا منهم ولا ضَـرَرًا

١٠ - وَبـالـتـغـنِّى عـلى الإخـوَانِ جـد أبَـدًا

حسـا ومعـنى وغُضَّ الـطرف إنْ عَثَـرا

١١ - وَرَاقـبِ الـشَّـيـخَ فى أحـوَالـه فَـعَـسى

يَـرَى عَليـكَ مِنَ إستِحـسـانِـه أثـرَا

١٢ - وَقـدمِ الجـد وانهضْ عـنـدَ خِـدْمـتـهِ

عسـاهُ يَـرْضى وحـاذرْ أن تُـرى ضَجِـرا

١٣ - فَـفِـى رِضَـاه رِضَـا البـارى وطـاعـتُـهُ

يَرضى عليـكَ فكن منْ تـركهـا حـذرَا

١٤ - (واعـلمْ) بـأنَّ طَـريـقَ الـقـومِ دَارِسـةٌ

وحـالُ من يَـدَّعيهـا اليـومَ كيف تَـرَى

---

(٩) إنهم أولى بهذا الشىء (التفضل) وهو شيمتهم ولم يزلوا متفضلين وهذه معاملتهم مع أصحابهم - وهى سجيتهم «وكيف لا تكون سجيتهم وهم متخلقون بأخلاق مولاهم، كما ورد «تخلقوا بأخلاق الله». فلا تخف عنهم ضررًا - أيها السالك المصاحب لهم - وتمسك بأذيالهم فإنهم القوم لايشقى جليسهم.

(١٠) السماحة لب الطريق. ومن تخلق بها فقد زال عن قلبه كل تعويق.

(١١) قال بعضهم: من أشد الحرمان أن تجتمع مع أولياء الله تعالى ولا ترزق القبول منهم. وما ذلك إلا لسوء الأدب، وإلا فلا بخل من جانبهم ولا نقص من جهتهم.

(١٤) وهكذا شأن طريق القوم لعزتها. كأنها فى كل عصر مفقودة ولا يظفر بها إلا الفرد بعد الفرد وهذه سمة معهودة. وذلك أن الجوهر النفيس لا يزال عزيز الوجود. يكاد لعزته يحكم بأنه ليس بموجود. والطريق أهلها مخفية فى العالم خفاء ليلة القدر فى شهر رمضان. وخفاء ساعة=

١٥ - مَـتَى أَرَاهُـم وَأَنَّى لى بِـرُؤْيَتِـهِـمْ
أَوْ تَسـمَعُ الأُذْنُ مِنى عنهُمُـو خَبَـرًا

١٦ - مَـنْ لِي وأَنَّى لِمِـثْـلِي أَنْ يُـزَاحِمَـهُـمْ
عَـلَى مَـوَارِدَ لَمْ آلَـفْ بهـا كَـدَرَا

= الجمعة فى يومها حتى يجتهد الطالب فى طلبه بقدر الإمكان، فإن من جد وجد ومن قرع الباب ولج ولج.

وقال: العالم شخص والأولياء روحه. فما دام العالم موجودًا لابد من وجودهم لكن شدة خفائهم وعدم ظهورهم حكم بفقدانهم فاجتهد - أيها الأخ - واصدق فى الطلب تجد المطلوب واستعن على ذلك الطلب بمدد علام الغيوب، فإن الظفر لا يحصل إلا بمجرد فضله. وإذا أوصلك إلى الشيخ فقد أوصلك إليه كما قلت فى الحكم «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه».

(١٦) وقال: ثم إن الشيخ - رضى الله عنه - لما ذكر عزة الطريق وفقدان أهلها شرع يتأسف على الاجتماع بهم ويتمناه ويستبعد من نفسه حصول ذلك بلقائهم. والتشرف بلقائهم تواضعًا منه وانكسارًا وهضمًا لنفسه واحتقارًا ولذا قال بعد ذلك: من لى وأنى لمثلى أن يزاحمهم. إلى آخره.

وهذا شأن العارف لنفسه بنفسه الممتلئ من معرفة ربه المتحلى بواردات قدسه. لأنه لا يرى لنفسه حالا ولا مقالا. بل يرى أقل من كل شىء وهذا هو النظر التام. كما قيل:

إذا زاد عـلم المـرء زاد تـواضـعًـا ... وإن زاد جـهـل المـرء زاد تـوقُّعـا
وفى الغصن عن حمـل الثمار مَنـالـهُ ... فـإن يعـرُ من حمـل الثمـار تمنَّعـا

فانظر إلى الشيخ أبى مدين ورفعته فى الطريق مع أول وصل من تربيته اثنا عشر ألف مريد. وانظر إلى هذا التنزل منه والتدلى بأغصان شجرة معرفته إلى أرض الخضوع والانكسار حتى إنه لم ير نفسه أهلا للاجتماع بأهل هذه الطريق. ويزيده هذا الانخفاض من الارتفاع لأن الشجرة لا يزيدها انخفاضها فى عروقها إلا ارتفاعًا فى رأسها. فتواضع - أيها الأخ - فى الطريق. وخذ هذا الأصل العظيم من هذا العارف المتمكن، يزل عنك كل تعويق.

١٧ - أُحِبُّهُمْ وَأُدَارِيهِمْ وَأُوثِرُهُمْ
بِمُهجَتِي وَخُصُوصًا مِنْهُمُ نَفَرَا
١٨ - قومٌ كرامُ السجايَا حيثما جلسوا
يبقى المكانُ على آثارهم عَطِرَا
١٩ - يَهدِى التصوفُ من أخلاقهم طَرَفًا
حُسْنُ التآلف منهمْ رَاقنِي نَظَرَا
٢٠ - هُمْ أهلُ وُدِّى وأحبَابِى الذين هُمُ
ممن يَجرُّ ذيولَ العزِّ مُفتخرَا

---

(١٧) ثم قال - رضى الله تعالى عنه - بعد ذلك «أحبهم.. إلى .. آخره» أى وإن لم أكن أنا منهم فإنى أحبهم ومن أحب قومًا فهو منهم. كما ورد فى الحديث «المرء مع من أحب» كما قيل:

أحب الصالحين ولست منهم
لعلى أن أنال بهم شفاعة
وأكرهُ مَن بضاعته المعاصى
وإن كنا سواء فى البضاعة.

وهذا أيضًا منه - رضى الله تعالى عنه - من تمام التنزيل السابق وتكميلا وتتميمًا.

(٢٠) قال الشيخ - رضى الله تعالى عنه - بعد ذلك «هم أهل ودى وأحبابى.. إلى آخره» فإن الشخص لا يحب إلا من جانسه، ولا يود إلا من كان بينه وبينه مؤانسة وفى هذا الكلام إشارة إلى أنه رضى الله تعالى عنه - من جملتهم وطينته من طينتهم وما تقدم منه فى التواضع والانكسار دليل على التحقيق فى هذا المجد والفخار كما تقدمت الإشارة إلى ذلك. فنسأل الله تعالى أن يسلك بنا أحسن المسالك.

٢١ - لا زَالَ شَمْلى بهِمْ فى الله مُجتمِعًا
وَذَنبنا فيهِ مَغفورًا وَمغتفِرًا
٢٢ - ثُمَّ الصلاةُ على المختارِ سَيِّدنا
مُحمد خَير منْ أوْفَى ومنْ نَذَرا

التخميس

وتخميسها للشيخ الأكبر محيى الدين محمد بن على الطائى الحاتمى الأندلسى المرسى الدمشقى.

وهى فى إرشاد السالكين إلى مرضاة رب العالمين.

ياطَالِبًا من لذَاذَات الدُّنا وطَرًا
إذَا أردت جَميعَ الخيرِ فيكَ يُرَى
المستشَارُ أمِين فاسمعِ الخَبَرًا
ما لذَّةُ العيش إلاَّ صُحبةُ الفُقَرًا
هُمُ السلاطِينُ والسادَاتُ والأمرًا

(٢١) ثم دعا وسأل أنه لا يزال شعلة مجتمعًا بهم فى الله تعالى، وذنبه مغفورًا.

(٢٢) - ونحن نسأله أيضًا إتمام الصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار خير من أوفى ومن نذر ومن أكرم الجار وعلى آله وصحبه السادة الأبرار والتابعين وتابعهم بإحسان إلى يوم القرار.

وهذا الرقم لمن تعطش ليله فى معانى هذه الأبيات والا فنحن معترفون بالعجز والتقصير عن معانيها وإنما الأعمال بالنيات. والله أعلم.

قــومٌ رضُـوا بِيســيرٍ من مــلابسهمْ
والقـوت لا تخـطرُ الـدنيـا بَهـاجِسِهم
صُــدورهم خَــاليــاتٌ منْ وَسَـاوِسِهمْ
(فــاصحبهُمــو وتــأدَّبْ فى مَجـالِسهمْ
وَخــلِّ حظَّكَ مَهــا قَـدَّمــوكَ ورَا
أُسلكْ طـريقَهُمـو إنْ كنُت تَــابعهمْ
واترك دعاويكَ واحذرْ أن تـراجعهمْ
فِيــا يُـريــدُونـهُ واقصــدْ مَنــافِعهمْ
(واستغنمِ الوقتَ واحضرْ دائمًا معهم
وَاعلْم بأن الرضا يختصُّ من حَضرَا)
كنْ راضِيًـا بِهُمو تسمـو بهمْ وتصلْ
إن أثبتوكَ أقمْ أو إن محَوكَ فـزُلْ
وإنْ أجاعوكَ جُعْ أو أطعموك فكُلْ
(ولازمِ الصمتَ إلا إن سئلتَ فقلْ:
لا عِلم عندى وَكنْ بالجهلِ مُستترًا)
ولا تكنْ لِعيــوبِ النــاسِ مُنـتقِــدَا
وإنَ يكنْ ظاهِرًا بـين الوُجـودِ بَدا
وانـظر بِعـين كمـال لا تَعبْ أحـدَا
(ولا تـرَ العيبَ إلَّا فِيـكَ مُعتقــدَا
عَيبًــا بــدَا بَيِّنًــا لكنــهُ استتَــرَا

تَنـلْ بِذلـكَ مـا تـرجـوهُ مِنْ أدَبِ
والنفس ذلِّــلْ لهـمْ ذُلاً بِــلَا ريبِ
بَـلْ كلُّ ذلـك ذُلّ نابَ عن أدَبِ
وحُطَّ رَأسَــكَ واستغفـرْ بــلا سَببِ
وَقمْ عــلى قَـدمِ الإنصــافِ مُعتـذِرَا
إنْ شِئتَ منهمْ بَـريقًا للطريقِ تَشُمْ
عن كلِّ ما يُكرهوه من فِعالكُ دُمْ..
والنفسَ منكَ على حسن الفعالِ أدمْ
(وإنْ بَدَا منكَ عَيبٌ فاعترفْ وأقِمْ
وَجْه اعتذارِكَ عما فيكَ منكَ جَرَى)
لَهم تَمَلَّقْ وقــلْ دَاوُوا بِـصلحـكمُــو
بِمرهمِ العفـوِ مِنكْم دَاء جَـرْحكمُـو
أنا المسيء هَبوُا لِي محضَ نُصحكمو
(وقــلْ عُبيـدكمُــو أوْلَى بِصفحكُمـو
فَسـامحوا وخُـذُوا بِالـرِّفقِ يا فُقـرَا)
لَاتَخشَ مِـنهـم إذا أذنـبـتَ همـتـهـمْ
أسنى وأعـظمُ أن تُـرْدِيـكَ عَشـرتهُمْ
لَيســوُا جَبـابِــرةً تُؤذِيـكَ سَـطوتهمْ
هُمْ بِــالتفضـلِ أوْلَى وَهْــوَ شِيمتهمْ
فَــلا تخفْ دَرَكًـا مِنْهم ولا ضَــرَرَا

إذا أَردتَ بهم تسلكْ طـريق هُـدَى
كنْ فى الذى يَطلبـوهُ مِنكَ مُجتهـدَا
فى نورِ يَومكَ واحذرْ أنْ تقولَ غَدَا
(وَبـالتغنِّى على الإخـوانِ جُـدْ أبَـدَا
حِسًّا ومعنى وغُضَّ الطرفَ إنْ عَثَرا)
أصْـدُقهمُ الحقَّ لا تَستعمـلِ الـدَّنَسَا
لأنهمْ أهـلُ صِـدْق سَـادَةٌ رُؤُسَـا
واسمحْ لِكلِّ امرئٍ منهم إليكَ أسَا
(وَرَاقبِ الشيـخَ فى أحـوالـهِ فَعَسَى
يَـرَى عَليكَ مِنَ استحسـانِـهِ أثـرَا)
واسـألْـه دَعْـوَتـهُ تحـظَى بِـدَعــوتِـهِ
تَنـلْ بِـذلـكَ مَـا تَـرْجُـو بِبـركَتِـهِ
وحَسِّنِ الـظنَّ واعرف حَقَّ حُـرمتـهِ
(وَقـدِّمِ الجدَّ وانهضْ عِنـدَ خِـدمتـهِ
عساهُ يَرضى وحاذرْ أنْ تُرَى ضَجِرا)
وَاحفظْ وَصيتـهُ زِدْ مِنْ رِعَـايَـتِـه
وَلَبِّـهِ إنْ دَعَـا فـوْرًا لِسـاعِتـهِ
وَغُضَّ صـوْتـكَ بِـالنَّجـوَى لِـطاعتـه
(ففى رِضـاهُ رِضا البـارِى وطـاعتـه
يرضى عليك فكنْ مِن تركها حَذِرَا)

والــزَمْ بمَنْ نفسهُ نَفسٌ مُســايِســةٌ
فِى ذَا الــزَّمــان فَــإنَّ النفسَ آيِســةٌ
منهمْ وحِـرفتهمْ فى النــاسِ بَــاخِســةٌ
(وَاعلمْ بــأنَّ طَـريقَ القــوْمِ دَارِسةٌ
وحالٌ منْ يَدَّعيها اليوْم كيفَ ترَى)
يَحِقُّ لِي إنْ نــأوْا عَنِّي لألْـفتـهـمْ
أُلازِمُ الحــزْنَ ممَّــا بِي لِـفــرْقَتِهْـم
عَـلى انْقـطاعِي عَنهمُ بَعـدَ صُحبتهمْ
(مَـتى أرَاهــمْ وَأَنَّى لِي بــرؤيَـتـهـمْ
أوْ تَسمــعُ الأذْنُ مِنى عَنهمُ خَبــرًا)
تَخلُّفى مَــانِعِى مِــنْ أنْ أُلائِمـهـمْ
مِـنهمْ أتـيتُ فَـلمنى لـستُ لائِـمهـمْ
يَاربِّ هَبْ لى صَلاحًــا كىْ أُنادِمهمْ
(وَمَنْ لى وأنَّى لِمثْــلى أنْ يُــزاحمهمْ
عَــلى مَــواردَ لمْ آلفْ بهــا كــدرا)
جَلَّتْ عن الوصف أن تُحصى مآثرُهْمْ
عـلى البواطن قـدْ دَلَّتْ ظـواهـرُهمْ
بــطاعــةِ اللّهِ فى الــدنيــا مَفــاخــرُهمُ
(أُحــبــهــمْ وأُداريهــمْ وأُوثــرهُــمْ
بمهجتى وخصــوصــاً منهـمُــو نـفــرا)

قـومٌ على الخلق بـالـطاعـات قـدْ رؤسُـوا
منهمْ جـلـيـسـهـمُ الآداب يـقـتـبسُ
ومـنْ تخـلَّفَ عَـنهـمْ حَـظهُ الـتـعسُ
(قَـومٌ كِـرَامُ السجـايَـا حَيثـما جَلسُـوا
يَبقـى المكـانُ عـلى آثـارِهـم عَـطِرًا)
فَـهـمْ بهـم لا تُـفـارقـهـمْ وَزِدْ شـغـفًـا
وإنْ تَخـلفتَ عـنهـمْ فـانْـتـحـبْ أسَـفًـا
عِـصـابـةٌ بِهم يُـكسـى الفـتىَ شَـرفَـا
(يَهدى التصـوفُ من أخـلاقهم طَـرفَـا
حُـسـنُ الـتـأُلُـفِ مِـنهـمْ رَاقـنِى نَـظرًا)
جَـرَرْتُ ذَيـلَ افتخـارى فى الهـوى بِهمُـو
لمَّـا رَضـونِى عُبَيْـدًا فى الهَـوى لَهـمُـو
وَحَـقـهـمْ فى هَـوَاهـم لـستُ أنْسـهـمُ
(هُم أهـلُ وُدِّى وَأحبـابِى الـذينَ هُـمُـو
مِمـنْ يَجـرُّ ذُيـولَ الـعـزِّ مُـفـتـخـرًا)
قـطعتُ فى النـظمِ قَلبى فى الهـوى قِـطعَـا
وَقَـدْ تَـوسـلتُ لِـلمـوْلى بِهـمْ طَـمـعَـا
أنْ يَـغـفـرَ الـلّهُ لِى والمـسـلمـين مـعـا
(لا زَالَ شَـمـلى بِهمْ فِى اللّهِ مُجتـمـعـا
وَذَنـبنـا فِـيـهِ مَـغـفـوراً وَمُـغـتـفـرًا)

يَـا كـلَّ مَنْ ضَمـهُ النـادى بِمجلسنَـا
ادْعُ الإلـهَ بِهمْ يَمحـو الـذُّنـوبَ لَنَـا

وادْعُ لِمنْ خَمَّسَ الأصـلَ الـذى حَسُنَـا
(ثُمَّ الصـلاةُ عـلى المختـارِ سَيـدنَـا
مُحـمـد خَـير مَـنْ أوْفىَ ومـنْ نَـذرَا)

وهذه قصيدة كتب إلينا بها الأخ الفاضل/ رائد العشيرة المحمدية - وكتب تعليقات على عدة من أبياتها - إنه يقول:

أخى فى الله تعالى فضيلة الإمام الأكبر:

السلام عليكم.. والشوق إليكم.. والدعاء لكم.. والأمل فيكم.. والمدد منكم وبكم.. جعلنا الله وإياكم ممن رق وراق، وذاق وأذاق، فإنه على قدر الأذواق تكون الأشواق، فى موكب العشاق.. الذين تورق فى أيديهم الأوراق، وقد انطلقوا من قيد القيد والإطلاق وبعد.. فلم يقع لى فيما قرأت عن أبى مدين من الشعر إلا هذه القصيدة.

وقد نقل هذه القصيدة منسوبة إلى أبى مدين كل من صاحب (السفينة).. و (قاموس الأناشيد)، و (سبيل السعادة)، و (أشعة الأنوار)، وكلها كتب أناشيد صوفية، تنسب إلى السادة الشاذلية، يقول أبو مدين:

تَضيقُ بنَـــا الــدُّنيـــا إذَا غبْتمُــو عَـنَّـــا
وَتَــزْهَـقُ بـــالأشــواقِ أرواحُـنـــا مِـنَّـــا
بعـــادكمُـــو مَـــوتٌ وقُـــربُـكمُـــو حَـيَـــا
وَإنْ غبتُمــو عَنَّـــا ولـــو نَفسًـــا متنَـــا[1]
نَمــوتُ إذا غِـبْتـمْ وَنَـحْـيــا بـقُـــربـكُـمْ
وإنْ جَـــاءَنـا عنْكمْ بَشـــيرُ اللقــا عشْنـــا
نَـعـيشُ بــذِكْــرَاكــم إذَا لَمْ نَــرَاكـمُــو
ألا إنَّ تــذكــار الأحِـبَّــةِ يُـنـعِـشُـنَـــا
يُحَــرِّكـنُـــا ذكــرُ الأحَــاديثِ عَـنْكمُــو
وَلَــوْلاَ هَـواكُم فى الحَشَـــا مَـا تحـرَّكْنـــا
وَلَــوْلاَ مَـعـــانيـكُمْ تَــرَاهــاَ قـلوبُـنــاَ
إذَا نحنُ أَيقَـــاظٌ وفى النَّــوم إنْ غِبْنـــا[2]
نَمُــوت أَسًــى مِـن بَـعـدِكـمْ وَصـبَــابـةً
ولـكنَّ فى المعنىَ مـعـــانيـكـمـــو مَـعْـنَـــا
فـقـــل لِلَّذِى يَـنـهَى عــن الـــوَجـــد أهْـلهُ
إذَا لم تَـــذقْ مَعنىَ شَـرابِ الهـــوَى دَعنـــا

(١) هذا البيت موجود فى بعض النسخ، ونقطة الضعف فيه لفظة «حيا»، ما لم تؤل بمعنى المطر الذى به الحياة.

(٢) رواية: وفى الليل أن نمنا بدلا من النوم إن غبنا، وهو أقوى شعرا.

إذَا لَمْ تَـذُقْ مـا ذاقتِ النـاسُ فى الهَـوَى
فَـبِـالله يـا خَـالِى الحَشَـا لا تُـعنِّفْنـاَ

وَسَـلِّمْ لَنَـا فـيـمَا ادَّعَـيـنَـا فَـإنَّـنَـا
إذا غَـلَبتْ أشـواقـنـا رُبمـا صِـحـنَـا

وتهـتز عـنـدَ الاستِمـاعِ حَـواسـنـا
وإنْ لم نُطق حمـل التـواجُدِ نـوَّحْنا[1]

أمَـا تَـنـظر الـطَّير المقـفَّصَ يـا فَـتىَ
إذَا ذَكَـرَ الأوطـانَ حـنَّ إلى المـغـنَى

وفَـرَّجَ بـالـتَّـغـريـد مَـا فى فُـؤادِهِ
فَـيَـفْـلق أَربـابُ الـقـلوبِ إذَا غـنَّى[2]

ويهـتز فى الأقفَـاصِ مِنْ فـرط وَجْـده
فمضـطرِب الأعـضـاءُ فى الحِس والمعْنَى

كـذلـك أَرْوَاحُ المـحـبـِينَ يـا فَـتىَ
تُهـزْهـزُهَـا الأَشـواقُ لـلعَـالَم الأسنَى

أَتُـلزِمُهـا بـالـصَّـبرِ وَهى مَـشـوقَـةٌ
وكَيفَ يُـطيقُ الصَّبرَ مَنْ شَـاهَـد المعنى

إذَا اهتَـزتْ الأَروَاحُ شَـوْقًـا إلى اللقَـا
نَعمْ تَـرقُصُ الأَشْبـاحُ يـا جَاهِـل المعنَى

---

(١) ورواية: نفوسنا بدلا من حواسنا، وهو أقوى نظما.

(٢) ورواية: فيرقص أرباب القلوب بدلا من يفلق أرباب القلوب.

فيـا حـادِى العُشَّـاقِ قُمْ واحْـد قَـائِمًا
وَزَمْـزِمْ لَنَـا بـاسمِ الحَبيبِ وَرَوِّحنَـا[1]
وَصُنْ سرنـا فى سكرنـا عن حسـودنـا
وإنْ نَـظَرَتْ عَينـاكَ شَيْئًـا فَسَـامِحنـاَ
فـإنـا إذا طبنـا وطـابت نفـوسُنـا
وخـامـرنـا خمـر الغـرام تهتـكنـا
فَـلاَ تَلُم السكـرَانَ فى حَـالِ سُكْـرِهِ
فقَـدْ رُفِـعَ التَّكْليفُ فى سُكْـرنَـا عنـا
ويَـا عَـاذِلى كَـرِّرْ عَـلَىّ حَـديثَـهُـمْ
فَـأَغـينـنُـا مِنهـمْ وأعيُـنهم مِـنَّـا

الله قـل

الـلّهَ قُـل وذَرِ الـوجـودَ ومـا حـوى
إن كـنـت مـرتـادًا بـلوغ كـمـالِ
فـالـكـلُّ دون الله إن حـقـقـتـه
عـدمٌ عـلى الـتـفـصيـل والإجمـالِ

---

(١) ورواية: ودندن لنا بدلا من: زمزم.

واعلم بأنك والعوالم كلُّها
لولاه فى محو وفى اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته
فوُجودُهُ لولاه عين مُحالِ
فالعارفونَ فَنُوا ولما يشهدوا
شيئاً سوى المتكبر المتعالِ
ورأوْا سواه على الحقيقة هالكا
فى الحال والماضى والاستقبال
فالمحْ بعقلك أو بطرفك هل ترى
شيئًا سوى فعل من الأفعال
وانظر إلى عُلْوِ الوُجُودِ وسُفْلِهِ
نظراً يؤيده بالاستدلالِ
تَجِدِ الجميعَ يُشيرُ نحو جلاله
بلسان حال أو لِسَانِ مقالِ
هو مُمْسِكُ الأَشياءِ من عُلْوِ إلى
سُفل ومُبدِعُها بِغيرِ مِثالِ

الله

فـــإذا نَـــظرتَ بِعـــينِ عـقـــلك لم تَجِـــد
شيئًـــا ســـواه عـــلى الـــذوات مصـــورًا
وإذا طـلبـتَ حـــقـيـــقـــةً مـــن غـــيـــره
فَـبـــذَيـــل جـهـلكَ لا تـــزالُ مُـعَـــثَّـــرا

الله

أَلـــلَّهُ رَبِّى لا أريـــدُ سِـــواهُ
هـــل فى الـــوجُـــود الحـــىّ إلَّا الـــلّهُ
ذاتُ الإلٰـــهِ بهـــا قِـــوَامُ ذواتـــنـــا
هـــل كـــان يُـــوجَـــدُ غـــيـــره لـــولاهُ

من الحب

تملكتمو عقلي وطرفي ومسمعي
وَروحي وأحشائي وكُلي بأجمعي
وتَيَّهتمُوني في بديع جمالكم
ولم أدر في بحر الهوى أين موضعي
وأوصيتموني لا أبوح بِسرِّكُم
فباح بما أُخفي تفَيُّضُ أدمعي
ولما فني صبري وقل تجلدي
وفارقني نومي وحُرِّمت مضجعي
أتيت لقاضي الحب قلت أحبتي
جفوني وقالوا أنت في الحب مُدعي
وعندي شهود للصَّبابَة والأسي
يُزكونَ دَعوايَ إذا جئت أدَّعي
سهادي ووجدي واكتئابي وَلَوْعتي
وشوقي وسُقمِي واصفِراري وأدمعي
ومِنْ عَجبٍ أَنِّي أَحِنُّ إلَيهِمْ
وأَسأل شَوقًا عنهم وَهُم معي

وتبكيهُمُ عَيني وَهُمْ في سوادها
ويشكو النَّوى قلبي وهم بين أضلعي
فإن طلبوني في حقوق هواهُمُ
فإني فقير لا عَليَّ ولا مَعي
وإن سَجنُوني في سُجوُنِ جفاهُمُ
دَخلتُ عليهم بالشفيع المشفع

شوق

يا قلبُ زُرْت وما انطوى ذاك الجوى
عجباً لقلب بالنعيم قد اكتوى
زاد الغرامُ وزَالَ كُلُّ تَصبُّرٍ
عالجتْه قبل الزيارة فانْطَوى
ولهيبُ وَجْدٍ هَيّجَتْه رَوْضَةٌ
من أجلها حُلتْ من الصَّبرِ القُوى
بل زاد شوقي للحبيب ورامَةٍ
والأبْرقَيْنِ وما لمنعرجٍ لوى
تالله ما شوقي لطيبة بعد ما
زُرتَ الحبيب وقبله إلا سوي

أرض أحبُّ إلى العَـلى من العُلا

نـزل الرسـول بها وفيهـا قد ثـوى

يـا تُـرْبـةً مـا مثلهـا من تـربـة

فيهـا الشفـاءُ لكـل عـاص والـدّوى

يـا روضـة مـا مثلهـا مـن رَوْضـة

يـا سَعـدَ مـن فى جنـة المأوى أوى

كم لى أنـوح على الـوصول وعنـدما

وصّـلْتـنى أصليـتـنى نـار الجـوى

فـكـأنـنى الـظمـآن صـادف قـطرة

فتضاعف الـظمأُ الشـديـد ومـا ارتـوى

قَـسَـماً بـطه وهـو يـاسـينُ الـذى

قـد جـاءَ فى النجم العـظيم إذا هـوى

وبقـاب قـوْسَـيْنِ الـذى هـو قـد دنـا

مـن ربـه ذو مـرة ثـم اسـتـوى

لأُجـدِّدَن نـيـاحـتِى بـسـيـاحَـتِى

أسـنَـاً عـلى ذاك المقـام ومـا حـوى

حـتى أمـوت وإن أمُـت مُـتـيـراً

فـلكُـلِّ عَبْـد مُسْلِم مـا قـد نـوى

يـاربّ أسألُـك الـرضـا والعَفْـوَ عن

مـا قد مضى يـا من على العـرش استوى

أعتقْ عُبَيْدَكَ من لَظَى نار غدًا
نزّاعة يوم القيامة لِلشَّوى
بمحمد المختار خاتم رسله
طه على فَضْلِ الجميع قد احْتَوى
فعليه من رب العُلاَ صَلَوَاتُهُ
وسلاَمُهُ ما غرّدت ورق اللِّوى

أقمار

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها
كأنكم فى بقاع الأرض أمطار
وتشتهى العين فيكم منظراً حسناً
كأنكم فى عيون الناس أزهارُ
ونوركم يهتدى السارى لرؤيته
كأنكم فى ظلام الليل أقمارُ
لا أوحش الله ربعاً من زيارتكم
يا من هم فى الحشا والقلب تذْكَارُ

إليك مددت الكف

إليــك مــددت الـكـف فى كــل شــدة
ومنــك وجــدت اللطف فى كــل نــائـب
وأنــت مــلاذى والأنــام بمـعـزل
وهــل مستحيـلٌ فى الــرجــاءِ كــواجب
فحقق رجــائى فـيــك يــارب واكفـنى
شــمــات عَــدُو أو إســاءة صــاحـب
فـكم كــربــة تـنجـى من غـمــارهــا
وكــانت شجى بــين الحشــا والـتــرائب
فــلا قــوّة عــنــدى ولا لى حــيــلة
ســوى أن فقــرى للجميــل المــواهـب
فيــا ملجــأ للمضــطرّ عــنـد دعــائــه
أغثنى فـقــد سُــدّت عــلى مــذاهـبى
رجــاؤك رأس المــال عــنــدى وربحــه
وزهــدى فى المخلوق أزكـى مكــاسـبى
ويــا محسنًــا فى مــا مـضى أنت قــادر
عــلى اللطف بى فى حــالــه والعــواقب

وإنى لأرجــو مــنــك مــا أنــت أهــله
وإن كُـنـت خــطَّاءً كــثــير المعــائــب
وصَــلِّ عــلى المختــار من آل هــاشم
شفيــع الـورى عنــد اشتـداد النــوائب

أهل المحبة

أهــل المحبـة بـالمحبـوب قـد شغلوا
وفى محــبتــه أرواحــهــم بــذلــوا
وخـربوا كـل ما يغنى وقـد عمـروا
ما كان يبقى فيا حسن الذى عملوا
لم تلههم زينـة الـدنيــا وزخـرفهــا
ولا جــنــاهــا ولا حــلى ولا حُــلَلُ
هاموا على الكون من وجد ومن طرب
ومــا استقــل بهم ربــع ولا طــللُ
داعى التــشــوف نــاداهم وأقـلقهـم
فكيف يهنـو ونـارُ الشـوق تشتعـل
من أول الليل قد سـارت عزائمهم
وفى خيام حمى المحبوب قـد نزلـوا

وافت لهم خِلَعُ التشـريف يحملها
عَرْفُ النسيم الذى من نشره ثَمِلُوا
هُـمُ الأَحِبَّـةُ أدنـاهـم لأنَّهُمُ
عن خدمة الصمد المحبوب ما غفلوا
سبحان من خصهم بالقرب حين قضوا
فى حُبّـه وعلى مقصـودهم حصلوا

غَياث الورى

يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا
ارْحَمْ عبيدًا أكف الفقر قد بسطوا
واستنـزلـو جـودك المعهـود فـاسقهم
رَيًّـا يُسريهُمْ رضـا لم يثنـه سخطُ
وعامل الكـل بالفضـل الذى أُلفـوا
يـا عَادِلًا لا يُـرى فى حكمه شـطَطُ
إن البهـائم أضحى الترب مـرتعهـا
والـطير تفـد ومن الحصبـاءِ تلتَقِطُ
والأَرض من حلة الأَزهـار عـاريـةً
كـأَنها مـا تحلت بـالـنبـات قطُ

وأنت أكرمُ مفضال نمدُّ له
أيدى العصاة وإن جاروا وإن قسطوا

ناجوك والليلُ حلَّاه بهاءُ سنا
كما يحلى سواد اللمة الشَّمَطُ

فشاربٌ بذنوب الذنب غَصَّ به
وآخرون كما أخبرتنا خَلطُوا

ومنعم فى لذيذ العيش وهو يرى
فى سلك من هو حول العرش ينخرط

ومُلحِدٌ يدَّعى ربًّا سِوَاك له
حيران فى شَرَكِ الإشراكِ يختبط

كل ينال من المقدور قسمتَهُ
قوم تَرقَّوْا وقوم فى الهوى سقَطُوا

حُكمٌ من الله عدلٌ فى بريته
فرض علينا له التسليم مشترطُ

ومن تصدى لحكم الله معترضًا
فقد تصدى له الخذلان والغلط

وما ذنوب الورى فى جنب رحمته
وهل يقاسُ بفيض الأبحر النقط

فما لنا ملجأ غير الكريم ومن
يلقى على الحوض وهو السابق الفرطُ

ذاك الرسول الـذى كُل الأنـام به
يـوم الـقيـامـة مسـرور ومغـتبطُ
صَـلِّ عليـه صـلاة لا نفـاد لهـا
مَنْ اسمه باسمـه فى الذكـر مُرتَبطُ

الفصل السّادس

... وأصبح أبو مدين شيخًا، يقدره العلماء، ويقدره المؤرخون: لما توافر له من العلم والتزكية، ونذكر الآن بعض تقديراتهم:

أبو مدين وابن عربي:

ونبدأ هذا التقدير بكلمات للشيخ الأكبر الإمام محيى الدين بن عربى، وينبغى أن يلاحظ أن كلام الشيخ الأكبر منه كلام رمزى، وأنه يجب أن يؤخذ على هذا الوضع، ومن قبيل الأسلوب الرمزى عند من يعرف مكانة ابن عربى، وأنه بلغ القمة فى المجال الصوفى.

ذهبت أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف، فمررنا بالحية المحدقة به، فقال لى البدل: سلم عليها فإنها سترد عليك السلام، فسلمنا عليها فردت، ثم قالت:

من أى البلاد؟.. فقلنا، من بجاية..

فقالت: ما حال أبى مدين مع أهلها؟

فقلنا لها: يرمونه بالزندقة.

فقالت: عجبًا والله لبنى آدم، والله ما كنت أظن أن الله - عز وجل - يوالى عبدًا من عبيده فيكرهه أحد..

فقلنا لها: ومن أعلمك به؟

فقالت: يا سبحان الله، وهل على الأرض دابة تجهله؟.. إنه - والله - ممن اتخذ الله وليًّا، وأنزل محبته في قلوب العباد، فلا يكرهه إلا كافر أو منافق.. اهـ

وهذه اللغة الرمزية لابن عربي لا يستعملها دائمًا، وإنما يتركها أحيانًا لصور من الحديث، بعضها عميق كل العمق، وبعضها واضح وضوحًا بينًا.

وكلام ابن عربي - رمزيًّا كان أو غير رمزي - له وزنه الكبير عند من يعرف مكانة ابن عربي، وأنه بلغ القمة في المجال الصوفي، وهو يضع أبا مدين في منزلة يعز بلوغها على من رامها، ويسميه: شيخ الشيوخ.. وهذه كلمات تبين مدى تقدير ابن عربي لأبي مدين: إنه يقول:

شيخنا أبو مدين، من الثمانية عشر نفسًا الظاهرين بأمر الله عن أمر الله، لا يرون سوى الله في الأكوان..

وهم أهل علانية وجهر.

مثبتون للأسباب.

وخرق العوائد عندهم عادة:

قل الله ثم ذرهم

قال: وكان يقول لأصحابه:

اظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة،

واظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة - يعنى خرق العوائد - والباطنة - يعنى المعارف - فإنه تعالى يقول:

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾

وهذه الطبقة اختصت باسم الظهور لكونهم ظهروا فى عالم الشهادة..

وقال فى موضع آخر:

شيخنا أبو مدين، رضى الله عنه، الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق فى كل شىء، فكل حال عنده أعمال، فتعلن بالصدقة كما يذكره فى الملأ، فإن من ذكره فى الملأ فقد ذكره فى نفسه، فإن ذكر النفس متقدم بلا شك، وما كل من ذكره فى نفسه ذكره فى الملأ، فهذه حالة زائدة على الذكر النفسى لها مرتبة تفوق صاحب ذكر النفس، لا يطلع عليه فى الحالين، فهو سر بكل وجه، فصدقة الإعلان تؤذن بالاقتدار الإلهى، فمن يخفيها أو يسرها، هو الظاهر فى المظاهر الإمكانية.. فهذه كانت طريقة شيخنا.. وكان يقول:

«قل الله ثم ذرهم»..

«أغير الله تدعون».

قال: وكان يقول لأصحابه:

أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هى العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصى ولا يستحيون من الله.

وكان يقول فى قوله تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب﴾.

فإذا فرغت من الأكوان فانصب قلبك لمشاهدة الرحمن، وإلى ربك فارغب فى الدوام، وإذا دخلت فى عبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها، وقل: «يا ليتها كانت القاضية».

وقال: مبينًا مدى ما وصل إليه أبو مدين، يقول أبو مدين:

إنما فضلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد لأنه يكتب لكل عبد من صلاته ما قام به منها، فيكتب من صلاة عشرها، ومن صلاة ثلثها ونصفها، وغير ذلك، أى كما فى الحديث، فيرتفع للجميع صلاة مكملة الأجزاء، بعضها ببعض، فيعيد الله بركة الكمال والاتمام على الجماعة، فيكتب لكل واحد منهم صلاة كاملة ببركة الاجتماع:

وقال: كان الأمر بسجود الملائكة لآدم عليه السلام عن إغضاب خفى، لا يشعر به كل أحد، فكان كالكفارة لما وقعوا فيه من تزكية نفوسهم وتجريح آدم عليه السلام.

وقال:

من قال «التمر» ولم يجد حلاوته فى فمه فما قال: «التمر»، وذلك أن حالة الشهود يتحد الوجود فى شهود الشاهد بكل موجود،فيرى كل شيء.

وقال العارف بالله ابن عربى، رضى الله عنه:

كان شيخنا أبو مدين -رضى الله عنه- يقول:

«من علامة صدق المريد فى إرادته فراره من الخلق، ومن علامة فراره عنهم وجوده للحق، ومن علامة صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخالق، فهذا هو حال الوارث للنبى، صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يخلو بغار حراء وينقطع إلى الله فيه، ويترك بيته وأهله ويفر إلى ربه، حتى فجأه الحق، فبعثه الله رسولا مرشدًا لعباده»..

فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمته، ومثله يسمى وارثًا، فالوارث الكامل من ورثه علمًا وعملا وحالا..

ولما علم الخضر رتبة موسى عليهما السلام وعلو قدره بين الرسل امتثل ما نهاه عنه طاعة لله ولرسوله، فإنه تعالى قال:

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾..

فقال: له فى الثانية:

﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى﴾..

فقال: سمعًا وطاعة.

فلما كانت الثالثة وسأله نسى موسى عليه السلام حالة قوله:

﴿إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير﴾..

ولما طلب الإجارة على سقايته مع الحاجة.. فارقه الخضر عليه السلام، وبعد ما أبان له علم ما أنكره عليه، قال:

﴿وما فعلته عن أمرى﴾..

لأنه كان على شرعة من ربه، ومنهاج فى زمانها، بخلاف حاله بعد بعثة محمد، صلى الله عليه وسلم، فإن كل الصيد فى جوف الفرا..

أبو مدين والشعرانى

وللإمام الشعرانى عدة كلمات فى تقدير أبى مدين، إنه يقول:

الشيخ أبو مدين المغربى، رضى الله عنه ورحمه، هو من أعيان مشايخ المغرب، وصدور المربين، وشهرته تغنى عن تعريفه، واسمه شعيب.

ويقول:

وأجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله، وتأدبوا بين يديه..

وكان ظريفًا جميلا متواضعًا زاهدًا ورعًا محققًا، مشتملا على كرم الأخلاق، رضى الله عنه.

وأما صاحب الكواكب الدرية فيقول:

«الأستاذ الأعظم، العارف الأفخم، عظيم الأكابر، رأس الصوفية فى

وقته، ورئيسهم المشهور، علم نعته زاهر، زاهد مراقب مشاهد، يقصد ويزار من جميع الأقطار، وببنان العرفان إليه يشار.... ولد ببجاية ونشأ بها، واشتهر حتى ملأ الآفاق ، وصار إمام الصديقين فى وقته بلا شقاق، وأخذ عنه الكبراء كالعارف ابن عربى رضى الله عنه». اهـ.

ولا يتأتى أن نذكر التقدير دون أن نذكر فى أوائل ما نذكر من ذلك رؤيا تعبر عن بعض ما منح الله للشيخ أبى مدين من هبات، وهى رؤيا تعبر تعبيرًا قويًا عن عطاء الله له، وعن عنايته سبحانه، ونتساءل: أهى رؤيا أم هى تعبير عن واقع؟ أهى شرح لحالته؟

ويقص أبو مدين نفسه الأمر فيقول:

جاءنى رجل من الصالحين فقال لى: رأيت البارحة فى النوم حلقة عظيمة لجماعة من الصوفية، وفيهم أبو يزيد البسطامى، وذو النون المصرى وغيرهما من المشايخ، وهم على منابر من نور، وأبو طالب المكى على منبر عال، وأبو حامد الغزالى على منبر يقابله، وأبو طالب يسأل أولئك الصوفية فيجيبه كل واحد بمبلغ علمه..

فقال أبو طالب لأبى حامد: أين غابت هذه العلوم التى يعرفها أبومدين فى دار الدنيا؟.. فقال له أبو حامد: هو هذا عن يمينك فاسأله، فقال أبو طالب: يا أبا مدين، أخبرنى عن سر حياتك؟.. فقال: بسر حياته ظهرت حياتى، وبنور صفاته استنارت صفاتى، وبديموميته دامت مملكتى، وفى توحيده أفنيت همتى، فسر التوحيد فى قوله: لا إله إلا أنا، والوجود بأسره

حرف جاء لمعنى، وبالمعنى ظهرت الحروف، وبصفاته اتصف كل موصوف، وباسمه ائتلف كل مألوف، فمصنوعاته له محكمة، ومخلوقاته له مسلمة، لأنه خالقها ومظهرها، ومنه مبدؤها وإليه مرجعها، كما أظهرها ذرا فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى..

يا أبا طالب، هو لوجودك محرك، وهو الناطق والممسك، إن نظرت بالحقيقة تلاشت الخليقة، فالوجود به قائم، وأمره فى مملكته دائم وحكمه فى خلقه عام كحكم الأرواح ، فى الأجسام، الحواس به بانت على اختلاف أنواعها، منها اللسان للبيان، وهو مع ذلك لا يشغله شأن عن شأن.

فقال له أبو طالب: من أين لك هذا العلم ياأبا مدين؟

فقال: لما أمدنى بسره غرف واردى من بحره، فامتلأ وجودى نورًا، وأثمر غيبة وحضورًا، وسقانى شرابًا طهورًا، وأذهب عنى ضلالا وزورًا، فغشيت أنواره أخلاقى، فنظرت الباقى بالباقى.. أهى رؤيا؟ أهى مشهد؟ أهى وارد؟... ومن هذا القبيل وفى صورة جميلة ما يلى:

وقيل له مرة فى المنام: حقيقة سرك فى توحيدك.

فقال سرى مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلٰهية التى لا ينبغى بثها لغير أهلها، إذا الإشارة تعجز عن وصفها وأبت الغيرة الإلٰهية إلا أن تسترها وهى أسرار محيطة بالوجود لا يدركها إلا من كان وطنه مفقودًا وكان فى عالم الحقيقة بسره موجودًا يتقلب فى الحياة الأبدية وهو بسره طائر

فى فضاء الملكوت ويسرح فى سرادقات الجبروت، وقد تخلق بالأسماء والصفات وفنى عنها بمشاهدة الذات، هناك قرارى ووطنى وقرة عينى ومسكنى، والحق تعالى فى غنى عن الكل، قد أظهر فى وجودى بدائع قدرته، وأقبل على بالحفظ والتوفيق، وكشف لى عن مكنون التحقيق، فحياتى قائمة بالوحدانية وإشارتى إلى الفردانية، فروحى راسخ فى علم الغيب، يقول لى مالكى: يا شعيب، كل يوم جديد على العبيد ولدينا مزيد، رضى الله عنه.

أما صاحب شذرات الذهب فإنه يقول:

«أبو مدين الأندلسى الزاهد العارف، شيخ أهل المغرب شعيب بن الحسين، ساكن تلمسان، وكان من أهل العمل والاجتهاد، منقطع القرين فى العبادة والنسك، بعيد الصيت، ويسميه الشيخ محيى الدين بن عربى بشيخ الشيوخ، نشر الله ذكره، وتخرج به جماعة من الفضلاء كأبى عبد الله القرشى وغيره، وانتهى إليه كثير من العلماء المحققين وفضلاء الصالحين كابن عربى، وله فى الحقائق كلام واسع» ا. هـ.

وقد كتب صاحب طبقات المالكية كلمات جميلة موجزة جامعة عن أبى مدين، يقول:

ولى الله أبو مدين شعيب بن حسن الأندلسى البجائى، شيخ المشايخ، وسيد العارفين، وقدوة السالكين، شيخ الطريقة.

جمع الله له علم الشريعة والحقيقة.

كان من الفضلاء وأعلام العلماء ومن حفاظ الحديث، خصوصًا الترمذى، وكان يقوم عليه.

وكان ترد إليه الفتاوى فى مذهب مالك فيجيب عنها فى الوقت.

مناقبه شهيرة، وكراماته كثيرة..

أخذ عن الحافظين: أبى الحسن بن حرزهم، وأبى الحسن بن غالب، والشيخ أبى يعزى المتوفى سنة ٥٧٢، المولود سنة ٤٣٧..

رحل للمشرق فأخذ عن العلماء، واستفاد من الزهاد والأولياء، وتعرف فى عرفة بالقطب الربانى..». اهـ.

وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته: كان أبومدين زاهدًا فاضلا عارفًا بالله تعالى، خاض بحار الأحوال، ونال أسرار المعارف خصوصًا مقام التوكل. لايشق غباره ولا تجهل آثاره.

ولعل مما يعنينا، نحن المصريين، بصفة خاصة أن نعرف ما يقوله العارف بالله أبو الحجاج الأقصرى، وما يقوله العارف بالله عبد الرحيم القنائى، رضى الله عنهما، عن أبى مدين.

أما الإمام أبو الحجاج فإنه يقول:

سمعت شيخنا عبد الرزاق، رضى الله عنه، يقول: لقيت الخضر، عليه

السلام، سنة ثمانين وخمسمائة، فسألته عن شيخنا أبى مدين، فقال:

هو إمام الصديقين فى هذا الوقت، وسره من الإرادة. ذلك أتاه الله مفتاحًا من السر المصون بحجاب القدس، ما فى هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه.

وأما الإمام عبد الرحيم القناوى فإنه يقول:

سمعت شيخنا أبا مدين يقول:

أوقفنى ربى، عز وجل، بين يديه، وقال لى:

يا شعيب، ماذا عن يمينك؟

قلت: عطاؤك.

قال: وماذا عن شمالك؟

قلت: يارب، قضاؤك.

قال: يا شعيب، قد ضاعفت لك هذا، وغفرت لك هذا. طوبى لمن رآك، أو رأى من رآك..

وفى هذا الكفاية فيما يتعلق بتقدير أبى مدين، رضى الله عنه.

الفصل السابع

النهاية

وفاته

استمر أبو مدين هاديًا فى طريق الله، فى نشاط لايفتر، حتى خرج به الآلاف من ظلمة المعاصى إلى نور الهداية.

فلما انتهت به الحياة كان أثره ضخمًا ورصيده فى الخير كبيرًا.

وعن وفاته يقول صاحب كتاب أنس الفقير:

وهذا القدر كاف فيما يتيسر لى من ذكر ما قصدت ذكره، ليعلم منه بعض أخبار الشيخ أبى مدين، رضى الله عنه، الحميدة، ومعانيه السديدة، ومقامه الكبير، وطريقه الشهير، وفضل من اتبعه، وسلك تفريقه وجمعه، ولما اشتهر أمره، وشاع فى الآفاق ذكره، سعى به عند خلفاء بنى عبد المؤمن بمراكش، فأمر السلطان بطلوعه من بجاية إلى حضرته، وكتب إلى والى بجاية بالوصية عليه أن يحمل خير محمل، فأخذ الشيخ أبو مدين، رضى الله عنه، فى السفر، وشق ذلك على كثير من أصحابه، وخافوا أن يكون وراء ذلك ما يغير النفوس..

فقال لهم رضى الله عنه وعنهم: شعيب شيخ كبير ضعيف لاقوة له للمشى، ومنيته قدرت بغير هذا المكان، ولابد من الوصول إلى موضع المنية، فقيض الله لى من يحملنى إلى مكان الدفن برفق، ويسوقنى إلى مرام المقادير

أحسن سوق، والقوم لاأراهم ولايرونى، فطابت نفوسهم، وذهب عنهم بأسهم، وارتحل به إلى أن وصل إلى تلمسان، فلما رأى العباد قال لرفقائه: ما يقال لهذا المكان؟.. فقيل له: العباد.. فقال: مليح للرقاد..

هكذا أخبرنى الشيخ المسن الصالح العدل أبو عبد الله محمد البجانى من عدول تلمسان، وبها حدثنى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة..

وقال بعضهم إنه قال: لا بأس بالنوم فى هذا المكان...

وشرفت تلك البقعة بتربته، وهذا خاتمة كراماته، رضى الله عنه:

قال أبو على الصواف رحمه الله تعالى: لما احتضر الشيخ أبو مدين استحييت أن أقول له:أوصنى، فأتيته بغيرى وقلت له: هذا فلان فأوصه، فقال: سبحان الله، وهلى كان عمرى كله معكم إلا وصية؟ وأى وصية أبلغ من مشاهدة الحال؟..

قال أبو على الصواف: وسمعته عند النزع وهو يقول: الله، الله، الله - حتى رق صوته..

وقال بعضهم: آخر ما سمع منه الحق.

وقال بعضهم: آخر ما سمع منه: «الله الحق»:

وقال بعضهم: آخر ما سمع منه: «الله الحى».

قلت: وأيًّا ما كان فهى خاتمة حسنة، ومرتبة علية مستحسنة، ظهر فيها

صدق قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يموت المرء على ما عاش عليه:

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة
وأهون ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلاوجدأموت من الهوى
وهاج على القلب بالخفقان
فلما رآنى الوجد أنك حاضرى
شهدتك موجودًا بكل مكان
فخاطبت موجودًا بغير تكلم
ولاحظت معلوما بغير عيان

وكانت وفاة الشيخ أبى مدين، رضى الله عنه ورحمه، فى عام أربعة وتسعين وخمسمائة، وكان فى ذلك اليوم محفل عظيم، ومشهد جسيم، وفى ذلك اليوم تاب الشيخ الصالح أبو على عمر الحباك التلمسانى وخرج عن دنياه، وكان يحدث بسبب ذلك فيقول: حضرت جنازة الشيخ أبى مدين، رضى الله عنه، بالعباد خارج تلمسان فما رأيت أعز من الفقراء فى ذلك اليوم، ولا أذل من الأغنياء فى ذلك اليوم..

قال: قلت فى نفسى: إذا كانت هذه حالهم فى الدنيا فماظنك بها فى الآخرة..

ويقول عن الضريح المبارك:

وقبر الشيخ أبي مدين - رضي الله عنه - بالعباد معهود مشهور، وحوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرًا، فما رأيت أنور من قبره، ولا أشرق ولا أظهر من سره، وليس الخبر كالعيان، والدعاء عنده مستجاب، قاله الأعيان. وقد وقفت على ذلك غير مامرة، وأخبرنى به من جربه، واختبرته.

زرته مرارًا، ورأيت له أسرارًا، فمنها زيارتى له مع أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين، أبي العباس ابن الأمراء الراشدين، وذلك فى سنة إحدى وستين وسبعمائة فى وجهته من المغرب إلى بلد قسنطينة، وكان مما عاهد الله به عند قبره فى ذلك اليوم أن من وصله بأذى فلا يجازيه به.

ويقول: وأما قبر الشيخ من بين هذه القبور فهو أنك إذا دخلت البيت فارجع على يمينك مستقبلا، فالذى يقع على يسارك هو قبره، وهذا المكان عادة الداخل أن يتنقل فيه، وهو مكان مصلى واحد، فإذا انتقلت فاستند إلى القبلة بانحراف وظهرك فى ركن الجدار، وسلم حينئذ على الشيخ من غير تقبيل وقل: جزاك الله خيرًا على اجتهادك فى نفسك وفيمن تعلق بك من تلامذتك ورحمك ونفعك بعلمك وطاعتك ونفع بك، ثم تقرأ ما تيسر، وتذكر ما تيسر، ثم تدعو بما شئت، وإن تيسرت لك صدقة للضعفاء والمساكين الملازمين على الباب فادفعها، فإن كان أحد يريد الزيارة فخفف وإلا فاجلس.

ويقول صاحب المقال الذى بدائرة المعارف الإسلامية عن أبى مدين:

وقد دفن أبو مدين فى جموع حاشدة من أهل تلمسان، وكانت جنازته فرصة ليظهر أهل تلك المدينة فيها تقديرهم الكبير للصوفى، وصار أبومدين منذ ذلك ولى تلمسان. وحاميها.

وازدهرت هذه المدينة ببركاته، كما نمت مدينة العباد حول قبره، وبنيت فيه قبة أبى مدين بعد وفاته بقليل من الزمن بأمر السلطان الموحدى محمد الناصر، وأخذ بعده كثير من الأمراء والملوك الذين حكموا تلمسان يضيفون الشيء الكثير إلى زخارف قبره المقدس، وقد بنى السلاطين المدينيون أصحاب تلمسان فى القرن الرابع عشر الميلادى إلى جانب قبره كثيرًا من المنشآت الفخمة التى يزال بعضها باقيًا إلى اليوم، نذكر منها بصفة خاصة الجامع والمدرسة.

ويقول صاحب الكواكب الدرية:

«مات سنة نيف وثمانين وخمسمائة، على نحو ثمانين سنة بتلمسان، ويقول»:

وله تصانيف منها كتاب «أس التوحيد».

فهرس

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٣٢٠٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٣٠٤-٧	ISBN

١ / ٨٤ / ٤٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)